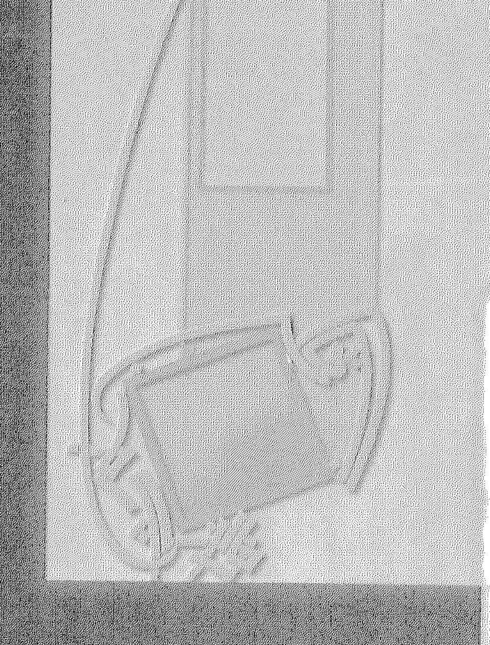
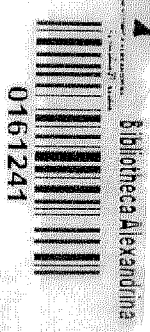
أخبار الحلاج

(من أندر الأصول المخطوطة في سيرة الحلاّج)

تصنيف: علي بن أنجب السّاعي البغدادي





تقديم:
هادي العلوي
أكرم أنطاكي
فائق حويجة



حقق أصوله وعلق عليه: موفق فوزي الجبر

كتاب

أخبار الحلّاج

(من أندر الأصول المخطوطة في سيرة الحلّاج)

تصنيف

علي بن أنجب السّاعي البغدادي

المتوفى سنة ٦٧٤هـ

حقق أصوله وعلّق عليه

موفق فوزي الجبر

الطبعة الثانية - 1997

دار الطليعة الجديدة

سوريا - دمشق - ص.ب 34494

هـ: 7775872

اخراج: هالة فطوم
لوحة الغلاف للفنان: نجا المهداوي

صمم الغلاف: جمال سعيد
تنفيذ الغلاف: بلاتينيوم

تقديم:
هـادي العلوي
أكرم أنطاكي
فائـق حـويجـة

التصوف منحى معارضة

ينسلك التصوف الإسلامي في خطين ينتظمان تاريخه الممتد عبر العصور الإسلامية حتى نهايات الثامن الهجري، هما:

التصوف الاجتماعي

التصوف المعرفي

وقد يتحدان أو يفترقان في فرد فرد من الصوفية، وهما على أي حال منحيان متمايزان في جوهرهما من حيث ساحة النشاط والأهداف الممنوحة.

ترجع البداية الحاسمة للتصوف إلى إبراهيم بن أدهم ــ القرن الثاني. وكان قد سبقه مسالك زهد ظهرت مع الإسلام واتخذت وجهتين: دينية خالصة وسياسية. الدينية قامت على مبدأ الزهد في الدنيا لنيل السعادة في الآخرة وهي من جوهر الدين ــ الداعي رعيته إلى البساطة كالتزام لها، للرعية، دون الاكليروس الذي ينعم عادة بامتيازات تمنح له لقيامه بمهام الرئاسة الإلهية.

أما السياسية فتقوم على تخلي القائد أو الحاكم عن امتيازات السلطة المادية والأدبية كشرط لادائه حق السرعية على الدولة. وهذه أدلج لها علي بن أبي طالب ومن بعده حركة المعارضة في عموم العصر الإسلامي. والتزمها هو كنهج في الخلافة، وتقمصها من بعده عمر بن عبد العزيز وحكام الخوارج في معاقلهم التي استقلوا بها عن الأمويين والعباسيين وكذلك حكام القرامطة في سواد العراق وشرقي العَرَبْيا.

ومن رموز الزهد الديني التي عاصرت إبراهيم بن أدهم كان داود الطائي وابن السمّاك المعدودين في أوائل المتصوفة لكنهما في الحقيقة أقرب إلى الزهاد منهم إلى المتصوفة.

وينبغي اعتبار إبراهيم بن أدهم أول متصوف في الإسلام. وقد يتشاطر الأولية مع شقيق البلخي لكنه ينفرد عنه في تأسيس المبادىء الأولى التي حكمت سياق التصوف في خطه الاجتماعي. وثقافته أرقى من ثقافة شقيق. وهما من بلد واحد هو مدينة بلخ في آسيا الوسطى، أفغانستان الحالية، القريبة من الهند والصين. ويسعنا القول تأسيساً على حالة إبراهيم أن التصوف وصل إلى المسلمين من هذين البلدين الآسيويين العظيمين، إذ لم يسبق للعرب أن عرفوا شيئاً من أصوله عدا مبدأ الزهد الشائع في الشرق منذ الغابر. ويمكن تتبع مجرى مشترك للتصوف الاجتماعي في الإسلام مع التاوية الصينية، وعموم فلسفات الصين عدا الكونفوشية الخالصة وغريمتها الشرائعية. وكان إبراهيم قد انتقل من بلخ إلى العالم العربي فعاش ردحاً في العراق والحجاز إلا أنه أمضى معظم حياته في الشام. وقالوا في سبب هجرته إلى الشام أنه كان يريد البحث عن مصدر عيش نظيف فلم يجده إلا في الشام حيث اشتغل عاملاً زراعياً وناطوراً للبساتين وطحاناً. وكان من أسرة غنية فتخلى عن ميراث أهله لكي يعيش من عمل يده. وعمل اليد هو أفضل وسيلة للعيش حسب المبادىء الإسلامية الأولى. ويقررها حديث مشهور: «ما أكل المرء طعاماً قط أفضل من عمل يده» وتمتع إبراهيم بن أدهم ببنية متينة وكان يؤدي الأعمال الشاقة بسرعة قياسية كالحصاد والطحن. والتزم بالعيش مع أصحابه وفق الأسلوب المشاعي المألوف في الجاهلية. فكان يقاسمهم ما يكسبه من عمله واعتادوا على الأكل معاً وتبادل الملابس. ولكونه في الشام، شارك إبراهيم في حروب المقاومة ضد البيزنطيين. وكانت الحدود الشامية — البيزنطية ساخنة على الدوام — وكان يباشر القتال بنفسه لقوة بدنه وشجاعته الفائقة، إلا أنه كان يرفض استلام حصته في غنائم الحرب. وكان يستفيد من الأيام التي لا يقع فيها قتال فيشتغل على عادته في المزارع أو البساتين لإعالة نفسه.

وإلى إبراهيم بن أدهم ترجع بعض اللوازم الأساسية للتصوف وتجد من بينها:

ـ الزهد في الدنيا والآخرة. أي رفض مبدأ سعادة الدارين الرائج في أوساط المتدينين. وأورد له أبو نُعيم في حلية الأولياء دعاء يقول فيه: اللهم أنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة؛ إذا أنت آنستني بذكرك ورزقتني حبك وسّهلت عليّ طاعتك فاعط الجنة لمن شئت ٨/٣٥... والكلام هنا في السعادة الروحية التي ينشدها المتصوفة. وهي من مبادئهم الكبرى. وكان طريق إبراهيم إلى السعادة الروحية هو التأمل وقد تحدث عنه أحد مريديه فقال أنه لم يكن كثير الصلاة ولكنه صاحب تفكر يجلس ليله يتفكر ـ الحلية ٨/٣٥.

ـ مناهضة القمع والقهر الصادر عن الدولة، والكفاح ضد النزعة العسكرية والحروب. ومن أحاديث أبو نُعيم في حلية الأولياء، وهي أوثق مصادره، أنه كان يعمل في غزة سقاء من الآبار. وكانت الجيوش تمر من هناك إلى مصر أو بالعكس فكان إبراهيم إذا مر به العسكريون أغلق البئر حتى لا يسقيهم. وللمتصوفة نفور شديد من العسكريين ومن حكايات أحدهم: «تهت في سيناء أياماً ثم اهتديت الطريق فلقيني عسكري فسقاني شربة ماء فعادت قسوتها على قلبي خمسة عشر سنة»...

ولا يتعارض هذا النزوع مع مشاركة إبراهيم في الحرب ضد البيزنطيين فهو هنا يخوض حرباً دفاعية أقرب إلى مفهوم الحرب الشعبية أو حرب المقاومة. ومناهضة المتصوفة للعسكريين لا تصدر عن هواجس مثقفين ينشدون الراحة من المعامع بل هي حركة مناضل ضد العسكرة والقمع الحكومي.

يتطور خط التصوف الاجتماعي من إبراهيم بن أدهم ليستمر في سلسلة أقطاب تمتد حتى نهايات العصور الإسلامية وبداية العصر العثماني حيث انتكس التصوف إلى دروشة. وتبلور في غضون هذه السيرورة المتصلة منحى تصوف مناضل ينسلك في تاريخ الحركات المعارضة ولكن ضمن ماهيته الخاصة به. وتتجه المعارضة في هذا الخط ضد ثلاثة أهداف هي:

سلطة الدولة

سلطة الدين

سلطة المال.

في خصوص الأولى تمسك المتصوفة بمبدأ المقاطعة الذي أرسته المعارضة الأولى للأمويين. وقام على عدم التعاون مع الدولة والامتناع عن الدخول في سلك القضاء والإدارة.

ويلحق به قطع جميع أشكال العلاقة المكنة مع أفراد الفئة الحاكمة الأموية ومن بعدها العباسية. ومن بينها المصاهرة إذ رفض سعيد بن المسيب تزويج ابنته للوليد بن عبد الملك حين كان ولياً للعهد. لكن بعضهم قبل العمل مؤدباً لأولياء العهد والأمراء. وكان غرضهم تلقين هؤلاء مبادىء المعارضة. وربما تسللوا إلى القصور من غير أن يكشفوا عن مذاهبهم. وقد نجح القَدَري عمرو المقصوص في التأثير على ثالث خلفاء الأمويين معاوية بن يزيد الذي حاول إرجاع الخلافة إلى أصلها الراشدي وفشل في ذلك. ولما اكتشف أهل القصر الأموي دور عمرو المقصوص في ذلك قتلوه تحت التعذيب.

وأخذت المقاطعة عند المتصوفة شكلاً بالغ التطرف فحرموا النظر إلى القصور، مجرد النظر، وحرموا الاستضاءة بمشاعل السلطان. وهذه كانت توقد للمواكب الليلية فتضاء بها المدينة ويستفيد منها الناس في الغزل والخياطة والكتابة وما أشبه. ونسبوا إلى أحمد بن حنبل أنه نهى عن مشاعل السلطان. وقد اعتاد المتصوفة على صياغة مبادئهم في أحاديث تُروى عن النبي أو الصحابة أو أئمة الفقه، ومعظمها موضوع من قبلهم ولا يصح إسناده. والكذب على مصادر التشريع بدءاً من النبي رائج عند المتصوفة ولا يتحرجون منه. وفي كتاب احياء علوم الدين الذي وضعه الغزالي في طوره الصوفي شحنات من الأحاديث الكاذبة التي يعلم الغزالي كذبها! وقد وظفها لأفكاره الاصلاحية التي تضمنها هذا الكتاب وهو من أهم كتبه.

وبالطبع فقد منعوا الأخذ من السلطان وحكموا على القابض منه بالخروج من التصوف. واختلفوا في الأخذ لإعادة التوزيع فحرمه أكثرهم.

وكـانت هـذه مـن العقـد الـتي عسّـرت عليهـم العمـل الاجتمـاعي لتقديـم إسعافات مباشرة للفقراء لأنهم كانوا لا يملكـون مصـادر تمويـل تكفـي لأداء هذه الخدمات.

وشمل المنع خطط للاندساس في جهاز الدولة لتقديم العون للمضطهديـن. ويرجع ذلك إلى الخوف من أن يتحول المندس إلى عضـو صـادق الارتبـاط في الأجهزة بعد أن يكون قـد ذاق امتيازاتهـا. وربمـا كـان ذلـك سـبيلاً لمـن لا يملكون مناعـة كافيـة يتيـح لهـم اغتنـام الفـرص مـن العمـل في الإدارة مـع احتفاظهم بموقعهم في سلك التصوف. وقد أجاز أئمة الشيعة هذا الاندساس، والتشيع حركة دينية سياسية بعيدة عن اعتبارات المتصوفة وهواجسهم.

والدولة عند المتصوفة شر كلها وحربهم عليها تنـدرج في المفهـوم الكلـي للتصـوف. وقـد ظهـرت في بعـض أوسـاطهم تحركـات انتفاضيـة مسـلحة لضربها كان من أبرزهـا تحـرك الحـلاج وسـيأتي الحديـث عنـه. إلا أنهـم وجدوا الدخول في حرب ساخنة مع الدولة غير مضمون النتـائج كمـا بينـت لهم تجربة الحـلاج ومأسـاته، فـاكتفوا بتأسـيس منحـى المعارضـة كجوهـر للوعي الصوفي وسعوا في نفس الوقـت إلى العمـل الاجتمـاعي للتخفيـف مـن معاناة الناس. وقد ساهم التصوف بقسـط كبـير في إعطـاء الثقافـة الإسـلامية هذا الوجه المعارض وفي بناء المثقفية الإسلامية علـى مسـتوى كونـي يتبـوأه القطب الصوفي ليكون نداً للحاكم ونقيضاً لـه في آن . ويـأتي مـن هنـا مقـت المتصوفـة للشـعراء لأن الشـعر في الإسـلام كـان يمثـل ثقافـة السلطة وفقـد استقلاله الذي كان يتمتـع بـه في الجاهليـة. وإلى هـذا المعنـى أشـار شـقيق البلخي بقوله: «كنت شـاعر فرزقـني الله التوبـة».. لأنـه لـو بقـي شـاعراً لدخل القصر. ولا يتصنف المنظوم الصوفي ضمـن الشـعر بهـذه الحـدود لأنـه مشبع بنفس المعاني المنثورة في كتبهم وأقوالهم وقد لجأوا أحياناً إلى التعبـير عـن هـذه المعـاني بـالوزن والقافيـة جريـاً علـى السـليقة العربيـة المـأخوذة بموسيقى الشعر.

يتلاقى العداء لسلطة الدولة مع منـاوأة سـلطة المـال. والدولـة في الشـرق هي المالك الفعلي للثروة الاجتماعية ولا يكـون الغـني غنيـاً إلا بهـا ومنهـا.

فالأغنياء داخلون في ملكوت السلطان. وقد جمع سَريّ السَقَطي بين الدولة والأغنياء في توجيه واحد يقول: «إياكم وقراء الأسواق وجيران الأغنياء وعلماء الأمراء». ويطور السقطي هنا موقف المسيح من الأغنياء ليمتد إلى جيرانهم. وهو يرمز بها إلى متعلقات الغنى وما ينشأ حوله من مظاهر وأشياء وأشخاص. وقد يُراد بالجيران أتباع الأغنياء أي أنصار الثروة والتملك الخاص من أهل الفكر والسياسة ويشمل ذلك عندنا الاقتصاديين والمثقفين من دعاة اقتصاد السوق الذين يردون على كارل ماركس نظريته الصائبة، والخالدة تبعاً لذلك، حول فائض القيمة. إن توجيه السري ذو دلالة بالغة في هذا التجاوز لحدود الطبقة المالكة إلى منظّريها ومؤدلجيها وما يتعلق بها من مواقف وأفكار وسياسات. وقد لا يكون خطر بباله مثل هذا المدى الواسع لتوجيهه لكن الأقوال التي تصدر عن عظماء البشر تملك دائماً امتدادها الطبيعي في الفكر كما في الواقع والذي على أساسه تأتي سيرورة الشرح اللاحقة لتقوم بالتطوير اللازم عنها.

ووجه المتصوفة تعاليمهم إلى الفقراء بعدم الأخذ من الأغنياء. وهذه العقدة موروثة من الجاهلية وتستند إلى مبادىء الإباء والكرامة البشرية. وقد عني بها صوفيتنا كأثر لثقافتهم ذات الجذر الجاهلي. وهي مطروحة أيضاً عند المعارضة السياسية وقد أوردت مصادر الشيعة عن جعفر الصادق: من أتى غنياً فتضعضع له لينال من دنياه ذهب ثلثا دينه» وعبارة تضعضع له كناية شديدة عن التذلل وبيع الكرامة. ولا يدخل في هذه العقدة ما يقوم به الصوفية أنفسهم من خدمات للجمهور لأنهم ينسلكون في نفس الوضع الاجتماعي الطبقي. وهم إنما يريدون تحصين الفقراء، والفقراء أغلبية الناس، ضد الاستسلام للأغنياء ودولتهم، أي للاغيار الذين لا يملكون شرعية أخلاقية تبيح التعامل معهم والمفصولين عن الناس بحجاب من العدوان والكبرياء.

ولتكريس القطع مع سلطة المال يتجرد الصوفي منه. والصوفية بأغلبيتهم فقراء من الأصل. ويحدث أن يأتي إلى السلك واحد من أبناء تلك الطبقات فيكون انسلاكه فيه مشروط بالتخلي عن ممتلكاته ومقتنياته. وهو ما حصل لإبراهيم بن أدهم الذي تقول بعض الحكايات أنه كان من أبناء الملوك،

والصحيح أنه ابن رجل ثري. ومن المعتاد أن تتهيأ للصوفي بعد أن يصل درجة القطبانية فرص واسعة وضاغطة للحصول على الأموال ويكلفه ذلك كفاح مرير لمواجهة الضغط والإغراء تمتحن به إرادته. ولم تحدث إلا القليل من حالات التراجع هنا.

وقد أوردوا منها قصة رُويم البغدادي. وكان له صديق ارتقى في سُلّم الإدارة وحصل على مال وفير فاغراه بمتابعته فضعف رُويم وأخذ منه. وقد علق أحدهم على ما حصل لصاحبهم هذا بقوله: من أراد أن يتعلم الكتمان فليتعلم من رُويم. كتم حب الدنيا في قلبه أربعين عاما! ومراده أن رُويم لم يكن صادق في تصوفه وإنما عاش يتحين الفرص حتى واتته فألقى عنه ثوب الرياء.. وهو ظلم للرجل فقد كان صادق التصوف وإنما أدركه ذلك في ساعة ضعف انكسرت فيها إرادته الصلبة.

ويتساهل بعض الصوفية في الأخذ من أشخاص معينين لهم نصيب من الثروة يفترض أنهم حصلوا عليه بوسائل مشروعة. ويسمى ذلك بالفُتوح. وهي أموال يفتح ا لله عليهم بها من حين لآخر. ولايستلمونها بأيديهم بل تلقى في مكان من المسجد وينادي الشيخ من في المسجد من الفقراء ليتناهبوها. أما معيشتهم، وهي قليلة التكاليف فتأتي من أحد موردين: عمل اليد أو ميراث الأهل. وقد عاش المعري على إيجار بيت موروث من أهله ذكر أنه لا يزيد على ثلاثين دينار في السنة. وهو مبلغ يكفي للعيش في المعرة وليس في دمشق أو بغداد.

وورث داود الطائي أربعمئة درهم من والدته عاش بها العشرين سنة التي امتدت إليها حياته بعد وفاة والدته. والميراث إذا زاد عن هذه المقادير يوزع. أما عمل اليد فيكون بنسخ الكتب أو سفّ الخوص أو العمل في الزراعة والبستنة. وقد يفتح بعضهم دكان صغير يجلس فيه الوقت الزائد على وقت المجالس. ومن هؤلاء سري السقطي. وله عن دكانه حكاية ظريفة، فقد احترق السوق الذي فيه الدكان فجاءه شخص وقال له: نجا دكانك من الحريق.

فقال سري: الحمد لله... ثم أدرك ما وقع فيه وكان يقول بعد مضي مدة على ذلك: «أنا من ثلاثين سنة في الاستغفار من قولي الحمد لله..

حيث أردت لنفسي خيراً من الناس». والمتصوفة شديدو التدقيق في مصدر ما يأكلون ويلبسون. وكان ابراهيم بن أدهم يقول: «أطب مطعمك ولا تبال أن تقوم الليل وتصوم النهار». أطب مطعمك أي ليكن طعامك من رزق نظيف ليس فيه مال سلطان ولا مال مغصوب من فقراء ونحو ذلك. وقد صنعوا حكايات متقنة في هذا الباب يظهر عليها جنوح الخيال الصوفي. قالوا أن قطباً دمشقياً باع دابة لرجل فعاد الرجل بعد ثلاثة أيام ليقول للشيخ أن الدابة لم تأكل شيئاً منذ دخلت منزله. فسأله الشيخ: ماذا تعاني من الأسباب؟ أي ماذا تشتغل. فقال: رقاص عند الوالي. فقال الشيخ: دابتنا لا تأكل الحرام... والصوفية يرقصون فليس الاعتراض على الرقص بحد ذاته بل هو الرقص عند الوالي.

ووضع بشر الحافي معادلة المعيشة الصوفية على النحو التالي:

الحلال لا يحتمل السَرَف (الإسراف) والأخذ من الناس مذلة.

في الشطر الأول للمعادلة يثبّت بشر الحافي مبدأ قال به المتشددون من المسلمين في العمل التجاري وغيره من مصادر الرزق وهو أن الوقوف عند القواعد الأخلاقية والشرعية في العمل لا يوفر لصاحبه أكثر من الضروريات. ويتوضح الحد في رواية لابن شعبة عن جعفر الصادق يرد فيها قوله: «ما جمعت عشرون ألف درهم من حلال» ـ تُحف العقول. وهكذا لكي يصل المرء إلى توفير معيشة رغدة له ولأهله فلابدَّ له من مصدر غير أخلاقي وغير شرعي.

في الشطر الثاني يجعل الأخذ من الناس منافياً للكرامة الشخصية وهي قاعدة جاهلية. والمراد هنا عامة الناس وليس الخاصة من أهل السلطة والثروة فالأخذ من هؤلاء حرام داخل في المنافاة الأخلاقية والشرعية.

وضمن هذه المعادلة تتحدد معيشة المتصوفة. وكما بينت من قبل فالالتزام بهذه الأصول جعل من الصعب عليهم تقديم الخدمات لجمهور الفقراء. والتبست عليهم الأمور هنا التباساً شديداً. فقد وجد معروف الكرخي نفسه مرة مضطراً إلى التقاط النوى من الدروب والأسواق ليبيعه إلى الحدادين ويعطي ثمنه لصبي فقير ليشتري به جوزاً يلعب به مع أقرانه بعد أن رآه واقفاً بينهم مكسور الخاطر لأنه لا يملك ما يشتري به الجوز!

ولم يكن في جبة معروف ما يكفي لشراء جوز للصبي.. وأطلق عبد القادر الجيلي (الكيلاني) نداء لنهب الأموال وتوزيعها على الناس. وهو نداء شديد الغموض والالتباس يدل على حيرتهم وقلة خياراتهم في هذا المضمار. وقد زادتهم الحيرة حقداً على الدولة التي تملك جميع الأشياء وتحول دونها ودون عامة الخلق المحتاجين فكانت الدولة هي الشيطان الذي يستعيذ منه القطب والذي تتدنس بذكره أفواه الشعراء. وبذكره يفقد الولي قلبه وتحدث القطيعة مع الوجدان. ولقد فقدت رابعة قلبها حين تساهلت فخيّطت فتقاً في قميصها في ضوء مشاعل السلطان. ولم يعد إليها فقيدها إلا حين تذكرت السبب ففتقت القميص. ولم يكن أمام القطبانيين حل يزيد على تشديد القطيعة والمعارضة وملاحقة من يتهاون فيها بالحرمان من بركة الحرية بعد أن رأوا ما حل بالحلاج. وهم بذلك يقرون بعجزهم أمام طاغوت المال والسلطة ولكن بعد أن غرسوا جذر المعارضة المتين في قلب الثقافة وجعلوا المثقفية نقيض الدولة ليؤسسوا بذلك منحى نضال يواصله المثقف في ظروف أخرى قد تكون أكثر مواتاة وانتاجاً. وهذه عندي هي ظروف انبعاث الحركة الشيوعية في إطارها المركس، ذلك الانبعاث الذي استوعبه مثقفو الصين فانتظموا في صفوف حرب التحرير بحملتهم الساحقة لينجحوا فيما فشل فيه أسلافهم التاويون. والماركسية شرط النجاح للشيوعية الآسيوية ولو أنها أيضاً تبقى مشروطة بالحكمة الشيوعية لعموم آسيا، ومن ثم يأتي فعلها المتميز في مجتمعات الشرق الآسيوي التي عرفت أصول المدامجة بين تراثها المشاعي والتنظيم الماركسي للمجتمع والاقتصاد. وما يحدث اليوم من خراب في تلك الربوع فمرجعه إلى السياسة والنظام السياسي الذي تخلف في التجارب الشيوعية الحديثة عن مجاراة الانجاز العظيم في المجتمع والاقتصاد.

وأتوقع أن يكون دور المثقف العائد من عصور القطبانية المشاعية فاعلاً في العمق بوجود الدولة الشيوعية الحديثة المقبلة، بعد أن رأينا سقوط دوره حينما ألحقته الدولة الشيوعية السابقة بجهازها. ومع تبدل النظرة إلى السلطة في ظل الدولة الشيوعية فلا تعود شيطاناً من شياطين الأغيار، تبقى للمثقف العائد مسافة تفصله عنها حتى يمارس دوره في الحياة المشاعية

للناس بعيداً عن سلطة المركز من أجل أن يساهم في بناء شيوعية القاعدة التي هي الأصل، والبديل الناجح عن شيوعية القمة التي انهارت على رؤوس الناس مع انهيار أعمدتها الفوقية.

قلت أن نضال التصوف الاجتماعي توجه ضد السلطات الثلاثة: الدولة والمال والدين. وفيما يخص سلطة الدين ألغى المتصوفة الوسائط ليتصلوا بالسماء رأساً. وكانت هذه فتنة الحلاج الأولى. وعليها بنى اللاحقون تجاوزهم للنبوات فقالوا على لسان أبو المغيث بن جميل: «خضنا بحراً وقف الانبياء في ساحله» وعلى لسان عبد القادر الجيلي: «معاشر الأنبياء أُوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوه». ـ الأولى وردت في الانسان الكامل للجيلي السبط والثانية في قلائد الجواهر ـ وقد اعترضوا على مبدأ خاتم الأنبياء فاعتبره ابن سبعين تضييقاً لواسع ومحي الدين ابن عربي قاصمة الظهر.. كما في الفصوص. والتصوف بهذا يندرج في معنى الربوبية DEISM وهو مذهب ينكر النبوات ويقر بوجود الخالق. ويرجع القول به إلى أبو بكر الرازي الفيلسوف الطبيب.. وقد قال كارل ماركس في «العائلة المقدسة» عن هذا المذهب أنه يشكل طريقة سهلة للتخلص من الدين. وللربوبية قولان واحد يرى إمكان التذاهن مع السماء والآخر ينكره ويقول بالقطيعة الكاملة ما بين البشر وعالم الغيب. والربوبيون المسلمون على التذاهن. ويرتبط ذلك بالحاجة إلى البعد الروحاني لدى الفيلسوف والصوفي. ومع أن تحقيقات الفلسفة والتصوف تؤدي إلى ادماج الباري (الخالق) في العالم وتنكر وجوده الفردي فإن الحاجة إلى البعد الروحاني للمثقف الكوني تترك فسحة للتذاهن مع الأسمى المسمى ذو النسب الإسمائية والحقائق الصفاتية التي تجمع عند ابن عربي بين التنزيه والتشبيه من أجل أن يمتد أمام الصوفي أفق مفتوح على الكون يتجاوز به الحسّية الصرفة لرجال الدين والمادية الصرفة للسياسيين في تكثيف شديد للطاقة الروحية التي يواجه بها المثقف الكوني تحديات الدولة وأغيارها. ويرجع إلى هذا السر الباطن أداؤهم للصلاة الفردية ونفورهم من صلاة الجمعة والجماعة. لأنهم بالصلاة الفردية يتذاهنون مع المطلق، وفي صلاة الجمعة والجماعة يؤدون عبادة خالصة على طريقة المؤمنين. والصوفي خرج من

مرتبة الإيمان إلى مرتبة العلم تم تجاوزها إلى مرتبة المعرفة فهو لم يعد يصلي لأنه يخاف من ا لله إنما يصلي لأجل الاتحاد في سيرورة مزدوجة يتأله بها الانسان ويتأنسن الإله.

والتذاهن عند الصوفي يقترن بالندّية التي يترادف فيها الأنا مع الهو، وهذا بخلاف التذاهن عند الفيلسوف الربوبي حيث تعامل الرازي مع الباري على جهة العلاقة العادية بين خالق ومخلوق. وفي هنيهة ارتقاء مطلقة قد يخرج القطب من هذه العلاقة فيرفع عنه قيد العبودية للخالق. وقد وظفت العبودية في الفكر الاجتماعي الإسلامي لمناهضة عبودية الإنسان للإنسان حيث يكون المسلم النموذجي هو من يأبى أن يكون عبداً لغير ا لله. لكن سيرورة الارتقاء الصوفي تبلغ في هذه الهنيهة مرتبة الاستغناء عن العبودية لله. وهذه المرتبة حققها أبو يزيد البسطامي، وهو من الجيل السابق للحلاج.

تبين لنا حتى الآن أن مناهضة سلطتي الدولة والمال ترتبط بالدفاع عن حقوق الخلق التي تهضمها السلطات. أما سلطة الدين فترفض لرفع القيد عن الفكر وتأسيس استقلال للروح تتيح لها الانطلاق في أفق كوني واسع. والروح غير مخلوقة عندهم. وأورد الكلاباذي في التصوف قول بعضهم «أن الروح لم يقع تحت ذلكن» وهذا تعبير يختلط فيه الإلحاد الإسلامي مع مفهوم الكرامة الجاهلي. أن الأمر الإلهي كن هو أمر بالمعنى الاجتماعي وليس فقط بمعنى الخلق الحاصل في الطبيعة. والجاهلي ينكر السلطة الآمرة متمسكاً باللقاحية. وبالدمج مع الفعل الطبيعي المستقل للروح تكون المخلوقية خرقاً للوجود بما هو وجود، ولكرامة الإنسان بما هو إنسان. وعندئذ يكون الخروج من سلطة الدين شرطاً في تكوين الشخصية الحرة للإنسان. لكن هذا أيضاً ما يعنيه الخروج عن سلطة الدولة في بعض معطياته، فالدولة إلى جانب أنها أداة عدوان على الخلق تهضم حقوقهم هي أيضاً أداة قمع تقيد حرية الإنسان وتقسم الناس إلى تابع ومتبوع. ومن الأمور التي خاضها الفكر الإسلامي قول فريق من الذين أنكروا ضرورة الدولة بأن نصب إنسان على إنسان ليعلمه ما يصح وما لا يصح هو افتئات وتسلط لا مرجح له. فليس هناك ميزة لشخص تجعله حاكماً على آخر فقد

يكون المحكوم أرجح منه عقلاً، لكن هذا المحكوم الراجح العقل ليس له من الميزات على شخص آخر ما يجيز له أن يكون حاكماً عليه. وتنشأ هذه الماحكة من اعتبار الإنسان أرقى المخلوقات بما فيها الملائكة، وهو ما يتفق عليه جملة مفكري الإسلام مؤمنهم وزنديقهم.

وهكذا مع التكريس الذي أعطاه الصوفية لحقوق الجياع نجد تكريس مماثل لكرامة الإنسان وشخصيته الحرة.

تتسلسل الأفكار الموصوفة في هذه السطور كما رأينا من إبراهيم بن أدهم وتسجل قفزة مع أبو يزيد البسطامي قبل أن تبلغ تأوجها في الحلاج. ومذهب الحلاج هو نفسه مذهب الصوفية الاجتماعيين، وفيه أيضاً نجد الجنوح الحلولي والاتحادي. وقد تناول الأستاذ فائق حويجة هاجس الخلود الشخصي الجلجامشي عند الحلاج وهي لمحة مضيئة لمأساة التصوف لا أعرف أحد قبله تنبه إليها. ويتماهى هذا الجنوح المأساوي المحثوث بلا حكمة الموت في شخصية مثقف مسكون بالسؤال حيث يتلبس الحلاج روح جلجامش بعمقها التراجيدي. والكلام في هذا الشأن يغري بالإطالة وقد استوفاه الأستاذ فائق في مقدمته ويمكن للقارىء الرجوع إليها.

وأود أن أتحدث هنا عن أمر كثيراً ما أغفله الباحثون في الحلاج بدءاً بماسينون الذي جرى في دراسته الحلاجية على نهج المستشرقين في أسطرة الشرق وحكمته الإنسانية. وليس هو بالشأن المجهول أو المُغفل في مصادر الحلاج التي تحدثت عن تورطات انزجّ فيها الحلاج من ذلك النمط الذي عرف عن التنظيمات السرية لفرق الغلاة. ومؤرخوه يتفقون على أنه بدأ حياته السياسية بالدعوة إلى الرضا من آل محمد.

وترد هذه العبارات في شعارات الخارجين من الشيعة معتدلين أم غلاة. واستمرت تحركاته في هذه الساحة بعد أن بلغ القطبانية. وقد وصلتنا عنه مراسلات ملغوزة كان يتبادلها مع أشخاص في جهات شتى من ديار الإسلام. وورد أسم الطالقان في نطاق تحركاته، وهما مدينتان واحدة في أفغانستان والأخرى في شمال إيران. وأورد التنوخي في نشوار المحاضرة عن بعض أصحاب الحلاج من الكتاب قال: خرج للحلاج توقيع إلى بعض دعاته تلاه علي فحفظت منه قوله: «وقد آن الآوان للدولة الغراء، الفاطمية

الزهراء المحفوفة بأهل الأرض والسماء. وأُذن للفئة الظاهرة مع قوة ضعفها في الخروج إلى خراسان ليكشف الحق قناعه ويبسط العدل باعه». وبهذا الاعتبار دافعت عنه المصادر الشيعية واتهمت العباسيين بقتله بسبب ذلك وليس على الزندقة كما أدعوا.

وتحدث ابن النديم في «الفهرست» عن الحلاج من هذه الجهة وقال أنه كان يروم انقلاب الدول. وينبغي أن يُفهم سبب إعدامه في ضوء هذه الوقائع. ونذكّر هنا أن قمع الفكر في العصر الإسلامي اختلط بالقمع السياسي وقلما تعرض المارقون من الفلاسفة والصوفية وعموم أهل الفكر للقمع خارج الاعتبارات السياسية. وقد صدرت من أبو يزيد البسطامي شطحات كفر أشد من المروي عن الحلاج. واضطر الجُنيد البغدادي إلى تأليف كتاب لتفسير هذه الشطحات وتبريرها. وكانت تفسيرات الجنيد كما يقول ابن السرّاج الطوسي في «اللُمع» مشكلة هي الأخرى. ولم يتعرض البسطامي ولا مفسره الجنيد لاشكال من الدولة. وبينما غلف الحلاج ونظراؤه أفكارهم بغلالات من الرمز تجعلها قابلة للتأويل كان الرازي يتكلم عن الأديان والنبوات بلغة الفلسفة القاطعة.

ولم يترك عنوان كتابه «مخاريق الأنبياء» مجال للمحاماة عنه لو أنه أحيل إلى المحكمة التي حاكمت الحلاج. وقد عاش الرازي في بغداد حيث سيعدم الحلاج بعد عقدين وكان مديراً لأكبر مستشفياتها. وسبب نجاته يرجع إلى عدم اشتغاله في السياسة. ويشبه مصير الحلاج من حيث الأسباب التي أدت إليه مصير بشار بن برد/ مع الفارق الكبير بين الشخصيتين/ فقد كان بشار يجاهر بالزندقة في شعره ويمدح المنصور وابنه المهدي ويأخذ منهما الجوائز. حتى إذا ضاقت به التقية السياسية فخرج إلى مسجد البصرة ليُنشد هجاءه المر للخليفة قتلوه بتهمة الزندقة.

إن اعتبار الحلاج من شهداء الفكر لا يخلو من صعوبة فهو شهيد موقف سيا ـ اجتماعي وضحية مغامرة طويلة الأمد أراد منها قلب دولة الأغيار لإنشاء دول الخلق التي يبسط بها العدل باعه. ومقتله ينتظم في سياق صلب المسيح وقتل مزدك والحسين وبابك. وهذه مصائر نضال طبقي لا نضال فكري. وقد التبس الأمر على الجواهري حين سمى تحرك المسيح

ثورة فكرية وصفق له طه حسين. والشعراء والأدباء ليسوا حجج على التاريخ. ويسود الخلط والتعميم الانطباعات السائدة عن تاريخ الفكر وتاريخ السياسة وهما متمايزان في العصر الإسلامي، ومندمجان في العصور الوسطى الأوربية وينبغي أن يُدرس كل تاريخ على حدة فيما يخص الإسلام الذي لم يمارس فيه المسجد سلطة زمنية.

الفرع الثاني للتصوف الإسلامي هو التصوف المعرفي. وهذا ينفصل عن التصوف الاجتماعي ولا يتولى نفس مهامه في الغالب. ورسالته معرفية كالفلسفة. ومن أقطابه ابن سبعين وابن عربي وعبد الكريم الجيلي — ابن سبط عبد القادر. وإمامهم الأكبر ابن عربي وهو فيلسوف بمنهج صوفي ومؤلفاته الكثيرة مكرسة للقضايا التي تناولتها الفلسفة وعلم الكلام والباطنية وغيرها من فروع الفكر الإسلامي. ويصعب تقييم الفلسفة الإسلامية واستحضار منجزاتها من دون الرجوع إلى ابن عربي الذي يبرز في هذه الساحة كأحد أعظم فلاسفة الإسلام وعلمائه. وقد سعى محمود قاسم للكشف عن نظرياته الفلسفية إلا أنه صرف معظم همه للمقارنة مع ليبتز وبعض فلاسفة العصر الحديث الغربيين. والمقارنة يجب أن تأتي على هامش المتن وليس غرضاً مطلوباً لأنها تدخل عندئذ في باب الإعلام لا في باب الدراسات. أما الذين درسوا ابن عربي من الغربيين كالأسباني بلاسيوس فلم يصلوا إلى أكثر من الميثولوجيا الصوفية التي تتناغم مع مناهجهم اللاهوتية. وقد هربوا جميعهم من «فصوص الحكم» لعجزهم عن فهمه كما صرح نيكلسون لتلميذه أبو العلا عفيفي - انظر مقدمته للكتاب —. والفصوص هو كتاب طور النضج الفلسفي لابن عربي ويحتاج إلى دراسة لإعادة تشكيل مذاهبه في هذا الخصوص.

على أن التصوف المعرفي يشارك التصوف الاجتماعي نفوره من القمع الديني ودعوته إلى حرية الاعتقاد. وقد زاول هذه المهمة بوضوح أكثر وعناية أشد تعكس من جانبها خصوصية الفعل الثقافي المجرد الذي يحتاج إلى الحرية فيمارسها ويدعو إليها. ويشترك في ذلك ابن عربي مع ابن سبعين وعبد الكريم الجيلي بالإضافة إلى المعري بينما لا نجد نفس الاهتمام بها عند الحلاج والبسطامي وعبد القادر الجيلي الملزوزين بقضايا الفقر

والاضطهاد الاجتماعي وقد تناول ابن عربي هذه القضية في فصوص الحكم وابن سبعين في الرسائل (نشرة عبد الرحمن بدوي) وعبد الكريم الجيلي في الإنسان الكامل، والمعري في اللزوميات. وهم الذين وضعوا الأسس القويمة لحرية الأديان وحرية الإلحاد في نفس الآن. وقد أثمرت دعوتهم في أوربا حيث انتقلت الحضارة في رحلتها المتعرجة ولم يتسع لها تطور المجتمع الإسلامي الذي انكبح على تخوم القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي.

أقف عند هذه السطور لأترك القارئ يتابع أخبار الحلاج كما وضعها ابن الساعي البغدادي وحققها موفق الجبر الدمشقي وكلاهما مشكور مأجور. والسلام على أهل المعرفة من كل بلد.

هادي العلوي

دمشق في ١٩٩٦/٦/٢٧

درب المريد أو... مسيحية الإسلام...

وقفة تأمل أمام سيرة أبي المغيث الحسين بن منصور الحلاج....

(١)

حين يدمى القلب وتنحبس الدموع... حين يبلغ ألم تمزقنا من صغائرنا حداً تكاد النفس فيه أن تتقيأ... ويكاد الغضب من خلاله أن يدمر... وحين نكاد أن نيأس من كل شيء... ونكاد الوصول إلى شفير الهاوية و...

حين نلج أعماق الجحيم لوحدنا... ولا من معين فـ...

تعمى بصائرنا ونكاد لا نلمس... لا مطلقاً ولا عدماً...

فلنتفكر قليلاً يا أنا... يا صديقي... فلنتفكر قليلاً... ولنراجع أنفسنا أولاً... وآخراً...

فما نحصده هو نحن... هو جحيمنا...كان ولم يزل... ولكن ...

حين يبكي القلب صادقاً وتغسله الدموع و... حين تنطلق من أعماقنا تلك الصرخة الصامتة تنادي أن... ربي اغفر لي... ربي اغفر لنا... لأننا لا ندري ما نحن فاعلون... عندها...

من أعماق جحيمنا... ووحدتنا... نلامس كالوهم... شعاعاً من الأمل و...

نكون من خلال الألم... والندامة... والمحبة... قد تجاوزنا ذاتنا...

ونكون من خلال أنفسنا... قد لامسنا المطلق... وقد لامسنا العدم...

إلهي أليس روحك الذي اصطفيته قد قال يوماً أن...

ســر الســرائر مطــوي بإثبــات	في جـانب الأفـق مــن نــور بطيــات
فكيـف والكيـف معـروف بظـاهره	فـالغيب باطنــه للــذات بــالذات
تــاه الخلائــق في عميــاء مظلمــة	قصـداً ولم يعرفـوا غـير الإشــارات
بالظن والوهـم نحـو الحـق مطلبهـم	نحــو الهــواء ينــاجون الســموات
والـرب بينهـم في كــل منقلــب	محــل حــالاتهم في كــل ســاعات
وما خلوا منه طرف العين لو علمـوا	ومــا خــلا منهــم في كــل أوقــات

يا إلهي، ماذا نقول... ونحن نتجاوز من خلال مسيرة مريدك ذاتنـا... ونتابع معه التأمل في دروبك اللامتناهية...

والقضيـة كـل القضيـة كـانت منـذ البـدء... وستبقى... علاقـة الـذات بالذات...

والذات هو الكمون والمطلق والعدم... ومن خلاله، ذاك الوجود الذي لـن ندركه... كل ما يحيط بنا... والكامن في قلوبنا... أنت يا إلهي...

والـذات في نفس الوقـت هـو الخليقـة ومـن خلالهـا... نحـن يـا أبعـد الخلائق وأقربها... يا أنا... يا أنت... يا صديقي... يا أنت... يـا هـو... يا إلهي...

والبحث عن الذات من خلال المعرفـة والخطيئـة والمحبـة والألم... قـد أوصلني اليوم عن غير قصد إلى الدرب الذي أنا فيــه... ومـن خلالـه... إلى قصة حزينة كالواقع... جميلة كالحلم تقول أنه...

(٢)

في ذلك الزمان ...

وتحديداً في عــام ٢٤٤ مـن الهجـرة الشـريفة... ولـد في قريـة الطـور في الشمال الشرقي من مدينة البيضـاء، في الجنـوب العربـي مـن إيـران، طفـل اصطفته الألوهة لنفسها... وأسمي كالقدر بالحسين... وقد...

كان والده المدعو منصور... (حلاج) قطن... تنقل وهو معـه في مختلـف مراكز النسيج في الأهواز... ليصل إلى مدينة «واسـط» حيـث كـانت مدرسـة

قرآنية معروفة، درس طفلنا فيها القراءة والقرآن والقواعد... قبل أن يغادرها إلى بلدة «تستر» حيث أضحى مريداً لدى شيخ متصوف معروف وصاحب طريقة تدعى بـ...السالمية... هو... السهل بن عبد الله التستري...

وكان الحلاج قد سمع بالسهل، في بلدة واسط، على لسان قاض عجوز من جنديسابور يدعى بالصاريفيني. والسهل هذا، كان من أوائل السنة الذين حاولوا وضع تفسير روحاني للقرآن...

وقد بقي الحلاج، سنتين (من عام ٢٦٠ إلى عام ٢٦٢هـ.)، لدى السهل مريداً... صامتاً ومستمعاً إلى تعاليم أستاذه... وإلى ما كان يدور في حضرته من نقاشات هامة مع أتباعه الذين نعدد منهم... الجريري والبربراهي وعمر بن واصل العنبري، الخ... وتستر الواقعة كما نعلم في الأهواز، كانت في حينه خاضعة لاختلاجات أول ثورة لمحرومي الإسلام آنذاك... تلك التي عرفت في التاريخ ولم تزل بـ... ثورة الزنج...

وقد ارتبط مُريدنا، كما أضحى اليوم مثبتاً، ببعض ممن كانت له علاقة بتلك الثورة، أفراداً من عائلة الكرنبائي الذين كانوا قد أقنعوه بالمغادرة...

(تأمل)

ما هي يا ترى، تلك العلاقة... أو لنقل ما هو ذلك الرابط.. بين الحياة المادية للإنسان، في قلب هذا العالم الذي مازال موحشاً، وفي سبيل تأمين متطلباته الدنيا و... ذلك الميل إن لم نقل ذلك الجاذب إلى المطلق و/أو العدم؟...

ثم، كيف يصبح الإنسان مريداً،... كيف، وهو من قلب تلك المادة الأصم، يصبح طامحاً إلى الترفع إلى دروب «الحكمة الإلهية»؟...

أو، بتعبير آخر، كيف تمايزت تلك الذرة من الغبار عن سواها؟ و... كيف وعت وهي المادة كانت ولم تزل، روحها؟ و... كيف وعت، وهي الغارقة في قلب الملايين والملايين من أمثالها، وحدانيتها؟...

إلهي كم راودتني تلك التساؤلات؟... وكم ما زالت تراودني...أشعر، أنني أحترق و... كالوهم ...

أكاد أسمع من الأعماق صرخة صامتة تتمزق محبة وتنادي... من غياهب عدمها...

أن سأكون وأتكاثر إلى ما لا نهاية... ومن خلالها...

أكاد أتلمس كيف أضحى «الصفر» «واحداً»... وأكاد أتلمس كيف أضحى «الواحد»... «وجوداً» و«عدداً»...

يا إلهي... وما نتلمسه ليس سوى بعض من لا نهايتك...

والعقل و القلب يقولان...إنه... حين لا يوجد سوى ذلك الأحد... لابد من تواجد العدد...

والعقل والقلب يقولان... إنه لكي تعّبر تلك «الروح المطلق» عن نفسها، تحتاج إلى تلك «المادة اللامتناهية» التي... تشع من ذاتها وتسعى من خلالها... عن وعي... إلى العدم من جديد...

إلهي، إني أتمزق ولكن... فلتكن مشيئتك، كما في السماء، كذلك على الأرض...

وإرادتك قد شاءت بالنسبة لمريدك...أن يقبع فترة، مستمعاً وصامتاً عند قدمي «معلمه الأول»... ثم، أن يتجاوز ذلك المعلم... ويتابع مساره... على خطاك... على ذاك الطريق... حيث...

سكوت ثم صمت ثم خرس — وعلم ثم وجد ثم رمس
وطين ثم نار ثم نور — وبرد ثم ظل ثم شمس
وحزن ثم سهل ثم قفر — ونهر ثم بحر ثم يبس
وسكر ثم صحو ثم شوق — وقرب ثم وفر ثم انس
وقبض ثم بسط ثم محو — وفرق ثم جمع ثم طمس
و أخذ ثم رد ثم جذب — ووصف ثم كشف ثم لبس
عبارات لأقوام تساوت — لديهم هذه الدنيا وفلس

وأصـــوات وراء البـــاب لكــــن عبارات الـورى في القــرب همــس
وآخــر مـــا يـــؤول إليـــه عبــد إذا بلـــغ المــدى حـــظ ونفـــس
لأن الخلـــق خـــدام الأمـــانى وحـق الحـــق في التحقيــق قــدس

ذاك الطريق الذي قاده إلى...

(٣)

البصرة و... عمرو المكي

وقد لعب عمرو المكي دوراً هاماً في حياة الحلاج... فهو الذي أهداه إلى «الصوفية» كطريق... حيث ألبسه الخرقة وأحلقه شاربيه....

والبصرة كانت في حينه إحدى العواصم الفكريـة للإسـلام... أمـا المعلـم الثاني لحلاجنا (عمرو بـن عثمـان المكـي)، فقـد كـان محدثـا، مـن أصـول حجازيـة... تتلمـذ علـى يـد البخـاري ويونـس بـن عبـد العـلا وربيـع بـن سليمان... وبويع بالطريقـة الصوفيـة في مكـة علـى يـد الجنيـد بـن محمـد البغدادي...

وعمرو الذي كان تاجراً ناجحاً... قد كتب في الروحانيـات والممارسـات الدينية، وكانت له أجوبة هامة في المسائل الرمزية...

وتغيرت حياة مريدنا...، بهدى معلمه الجديد... فـأضحى متنسكاً... دون أن ينقطـع عـن سـواه... يسـكن في حـي مربـاد، قريبـاً مـن عمـرو... ويصلي في «مسجد الأمير» في خمس الخريبه في حي الزيـاديين حيـث كـان يلتقـي بأبنـاء بلدتـه وحيـث... تعـرف هنـاك إلى كـاتب الوزيـر مـن آل الكرنبائي... على صوفي آخر هو... أبي يعقوب الأقطـع البصـري الـذي... تزوج الحلاج من ابنته في نهاية عام ٢٦٣ للهجرة...

ونلاحظ أن الحلاج، من خلال آل الكرنبـائي أولاً، وعمـه المرتبـط بهـم وبالجنيد ثانياً، قد أضحى أقرب من تلـك الأوسـاط الـتي دعمـت في حينـه ثورة الزنج... ولكن...

مع زواجه الذي لم يستشر فيه أحداً، اصطدم الحـلاج بمعلمـه...فـذاك كان يبغي، على ما يبدو، تلميذه المختـار لنفسـه... والتلميـذ كـان قـد بـدأ

يشق طريقه إلى الحق وحيداً ربما... وأيضاً... وهذا ممكن جداً حسب ماسينيون، ربما يكون المكي قد تخوف من انعكاسات تقارب تلميذه من خلال عمه من آل كرنبائي وأوساطهم المؤيدة لثورة الزنج...

(٤)

الحلاج والجنيد...

في عام ٢٦٤ توجه الحلاج إلى بغداد ليستشير الجنيد بما أضحى خلافاً علنياً، بين عمرو المكي والأقطع بسبب زواجه... ما يمكن اعتباره مع ماسينيون، لقاءهما الأول... والذي أضحى الحلاج من بعده، على اتصال بالجنيد... وهو بعد لم يزل في البصرة... والجنيد كان قد أمره، فيما يتعلق بتلك الخصومة «...بالسكون والمراعاة....».

فالجنيد كان حتماً المعلم الثالث لمريدنا إلى جانب البصري... وقد بقي على صلة به، كما يقال، طوال فترة وجوده هناك ولبعض الوقت بعد انقطاع صلته بالبصري... كما تقول الأسطورة... ولكن... استمرار الخصومة بين عمه والبصري، مقروناً بالظروف الصعبة التي كانت تعاني منها البصرة ربما، أدت إلى ترك الحلاج لمدينته قاصداً مكة لأداء فريضة الحج «... وكان أول دخلته...» حيث كما تقول الأسطورة «...جلس في صحن المسجد سنة لا يبرح من موضعه إلا للطهارة أو للطواف ولا يبالي بالشمس ولا بالمطر...» مصاحباً صوفية مكة... فـ...

ركوب الحقيقة للحق حق — ومعنى العبارة فيه يدق

وحلاجنا الذي كان قد...

ركوب الوجود بفقد الوجود — وقلب (ـه) قسوة لا يرق

كان يتأمل، في جوار الرسول في نفسه، باحثاً من خلالها عن طريقه... وهو الذي قال يوماً معبراً عما كان يختلجها من حقيقة...

أن «افهام الخلائق لا يتعلق بالحقيقة، والحقيقة لا تليق بالخليقة. الخواطر علائق، وعلائق الخلائق لا تصل إلى الحقائق. الإدراك إلى علم

الحقيقة صعب، فكيف إلى حقيقة الحقيقة؟ وحق الحق وراء الحقيقة، والحقيقة دون الحق».

«فالحقيقة حقيقة، والخليقة خليقة...» والحل أو الطريق هو أن «...(تـ)دع الخليقة لتكون أنت هو، وهو أنت من حيث الحقيقة» فقد...

صيرنى الحق ها حقيقة ... بالعهد والعقد والوثيقة

شاهد سري بلا ضميري ... هذاك سري وذا طريقة

خاطبنى الحق من جنابى ... فكان علمي على لسانى

قربنى منه بعدَ بعدٍ ... وخصنى الله واصطفانى

والحق الذي اصطفاه قد قال له، من خلال قلبه: «أنت تهدي إلى الدليل، لا إلى المدلول، وأنا دليل الدليل».

ويعود الحلاج من مكة وقد تعمقت تجربته... ويبدأ والله أعلم في الدعوة جهاراً لما يعتقد... مما أثار على ما يبدو تحفظ الصوفية عموماً، وشيخهم الجنيد خصوصاً... فهؤلاء كانوا في حينه، يتوقون كثيراً من إطلاع الناس على أسرارهم خشية وقوعها تحت طائلة فقهاء الشريعة من ناحية... وطائلة الدولة التي كانت تعاني من الزنج من ناحية أخرى... فكانت خصومة حلاجنا مع رفاقه القدامى وكما عبر ببلاغة ومرارة قائلاً أن...

من سارروه فأبدى كلما ستروا ... فلم يراع اتصالاً كان غشاشا

إذا النفوس أذاعت سر ما علمت ... فكل ما حملت من عقلها حاشا

من لم يصن سر مولاه وسيده ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وعاقبوه على ما كان من زلل ... وأبدلوه من الإيناس إيحاشا

وجانبوه فلم يصلح لقربهم ... لما رأوه على الأسرار نباشا

من أطلعوه على سر فنم به ... فذاك مثلى بين الناس قد طاشا

هم أهل سر وللأسرار قد خلقوا ... لا يصبرون على ما كان فحاشا

لا يقبلون مذيعاً في مجالسهم	ولا يحبون سترا كان وشواشا
لا يصطفون مضيفاً بغض سرهم	حاشا جلالهم من ذلكم حاشا
فكن لهم وبهم في كل نائبة	إليهم ما بقى ذا الدهر هشاشا

ولكن، إن كان وا لله أعلم...

للعلم أهل وللإيمان ترتيب	وللعلوم وأهليها تجاريب

فإن حلاجنا ما كان ممن يكشف سراً إنما هي قطعاً....

...عروس هواها في ضمير(ه) تجلت

ونتابع فـ...

ما وصلنا عن هذه الخصومة كان لاحقاً لمأساة حلاجنا... وكان نقلاً عن أتباع للجنيد أو متصوفة كالجريري والخلدي وعن... عمه الأقطع البصري الذي أضحى الحلاج على خلاف معه... يتحدث ظاهراً عن رفض الجنيد للحلاج... إن لم نقل عن اختلافهما من البداية إلى النهاية... فمن كان الجنيد في الحقيقة؟... وكيف على ضوء ما وصلنا نستخلص بعضاً من حقيقة علاقته بالحلاج؟...

والحق يقال، إن كل ما ينقل عن الجنيد بن محمد الذي ولد في بغداد عام ٢٢٥ للهجرة من أب قواريري... يؤكد أنه كان مريداً للشيخ الشافعي الفاضل أبو ثور الكلبي وعمره آنذاك عشرون عاماً... وأنه، قد اطلع على ما ندعوه بالطرائق السرانية على يد خاله سري السقطي الذي كان تلميذاً للمحاسبي... وأنه تعمق في العلم مما جعله خليفة أبو جعفر أبو وهب الزيات كمعلم ورئيس للخلوة الصوفية في الشونيزية... يؤكد أيضاً تقاربه من حيث العمق الروحي مع الحلاج...

فعنه وصلتنا عدة مؤلفات نعدد منها: دعوة الأرواح، السكر، الإفاقه، الغناء، الفرق بين الإخلاص والصدق، التوحيد وآداب المفتكر إلى ا لله... وخاصة...الرسائل...

وهي مؤلفات تعكس بعداً سرانياً كبيراً... حيث تحدث عن انتقاء الحق لمختاريه من البشر «فيتظلل بهم» ويتجلى لقلوبهم... فيصبح المريد

شبح خالقه الذي يعيده إلى نقطة البداية... «يوم الميثاق» وتلك هي النهاية... وهذه كانت حال حلاجنا التي تلمسها وا لله أعلم، الجنيد، بعلمه وقلبه...حيث، لما كانت الغاية هي «إفراد القدم عن الحدث» وهذا لا يمكن أن يتحقق بالنسبة للمريد المصطفى إلا من خلال الـ «الفناء في المذكور» و/ أو الـ «توحد مع الربوبية» من خلال التمييز بين «المأمور والمحظور»... مما يحقق العودة إلى البدء من خلال الفناء. فإن الألوهة التي تتلبس الولي بجبروتها، تحيله غباراً قبل أن تميته وتقتله وتدفنه وتعيده إن شاءت إلى الحياة من جديد... تصبح بحد ذاتها، أساس حياة الولي الذي يتقمص روح خالقه... ويتحرر من هيكله (جسده)...

ونسجل أن هذه الأفكار تتوافق نظرياً، كما نرى مع مسار الحسين بن منصور الذي كان يوماً مريداً للجنيد... ولكن إن كانت تلك هي الحال، فكيف نفسر عندئذ ما وصلنا عن مريدي الجنيد من سِير تتحدث عن خلاف الحلاج والجنيد؟؟؟

فسواء... عن لقائهما الأول «نقلاً عن أحمد الصغير، نقلاً عن ابن الكفيف... نقلاً عن الجريري» ...أو، عن لقائهما الأخير... «نقلاً عن الهجوري نقلاً عن حكايات الخلدي» ...أو، من خلال ما يروونه عن حادثة «أنا الحق» ...أقوالاً تنسب للجنيد وتستنكر مواقف الحلاج وتتوقع له (من حيث الظاهر) بؤس المصير... تردد على سبيل المثال لا الحصر أن... «أرى في كلامك فضولاً!... و... إلى خشبة تفسدها؟...».

ما يؤكد، من حيث الظاهر على الأقل، أن خلافاً في العمق كان قائماً فعلاً... ولكن، لم لا ندع المجال قليلاً لحدسنا...

(تأمل)

تتعدد طرق المريد بتعدد المريدين... والغاية واحدة... حيث يقضي المريد حياته ههنا باحثاً عن الحقيقة... والحقيقة بين يديه، حوله إن شئتم، وفي قلبه تحديداً... وما أقربها... وفي الوقت نفسه، ما أبعدها...

والبحث عن الحقيقة بالنسبة للمريد غالباً ما يكون من خلال البحث عن المعلم...

وقد يجد المريد معلمه ههنا... وقد لا يجده... فالمعلم الحق للمريد الحق يبقى، قبل كل شيء... ذاك الذي في قلبه...

عند قدمي معلمه الأول... يتعلم المريد المنطق ربما... حيث غالباً، ما تفرض الحياة أن يتلمس ابن الحقيقة، في البداية، طريقاً عقلانياً للاهوته...ولكن... هل بوسع العقل وحده معاينة الألوهة؟...

والمعلم الثاني لمريدنا هو ربما ذاك الشيخ الملهم الوقور الذي يرشد خطاه على الطريق... ولكن، هل الطريق واحدة بالنسبة للجميع؟.. والمعلم الحق يعلم قبل سواه، أن الطرق إلى الألوهة متعددة بتعدد البشر... والجنيد كان كما يقر الجميع من أكبر معلمي الصوفية... ولكن...

ما هي الصوفية كطريق إلى الألوهة؟... ومن أبنائها صاحبنا الذي أنشد قائلاً أن...

ليس التصوف خيلة وتكلفا ... وتقشفا وتواجدا وصياح

ليس التصوف كذبة وتظلما ... وجهالة ودعابة ومزاح

بل عفة ومروءة وفتوة ... وقناعة وطهارة وصلاح

وقفاً وعلماً واقتداءً وصفاْ ... ورضاً وصدقاً ووفاْ وسماح

فالتصوف هو (الحكمة الإلهية)... والصوفي بالنسبة للعارف الحق هو... الحكيم الإلهي... وهذا ما يثبته بالنسبة للمريد العارف حساب الجمل ربما... حيث...

ص = ٩٠، و = ٦، ف = ٨٠، ي = ١٠ ما مجموعه ١٨٦ و...

أ = ١، ل = ٣٠، ح = ٨، ك = ٢٠، ي = ١٠، م = ٤٠، ١= ١، ل = ٣٠، إ= ١، ل = ٣٠، هـ = ٥، ي = ١٠، ما مجموعه أيضاً، ١٨٦...

وهذا، إن استخدمنا التعبير اليوناني، هو... الثيوصوفيا... أي الحكمة الإلهية... و/أو ماكان ومازال يعرف بـ... الغنوص...

وهذا اقتضى ولم يزل... معرفة الحق من خلال القلب والعقل والتواصل...وهذا لا يمتلكه حقاً سوى أبنائه المختارين...

فـ «من يملك الغنوص، هو المدعو من الأب. لأن من لم يدعٍ هو الجاهل. وحقا، كيف بوسعه أن يسمع إن لم يناد؟ ومن يبقى جاهلاً حتى النهاية هو ابن النسيان والعدم...» (إنجيل الحقيقة، القول ٢١).

«...أما مالك الغنوص فهو ابن الأعالي... وهو العارف اسمه... وهو المبدأ المنبثق من الأب، المدعو بالابن: فاسم الأب هو الابن. وهو الذي من أعطى من حيث الجوهر إسما لمن انبثق عنه أي، لمن كان هو، فجعله إبناً له «إنجيل الحقيقة، القول ٣٨).

والحلاج كان ملهماً... وعن المكي اطلع وا لله أعلم... كما يقول ماسينيون على ... سر عظيم... سراً كان ربما ذلك الذي رفض (البعض) في حينه... أن يكاشفه به...

(٥)

DEMON EST DEUS INVERSUS[1]

و أعيد قراءة ما تجسده قلبه الطاهر من حقيقة... وما تجسدته من خلال حقيقته قلوب العارفين ههنا... وأبكي دما لمأساته ومأساتنا...

و«السيد الغريب... أحسن ا لله مثواه» كان يبكي حين فهم وهو من أصدق المسلمين إيماناً:

أن «ما صحت الدعوى لأحد إلاّ لإبليس وأحمد. غير أن إبليس سقط عن العين، وأحمد كشف له عين العين».

فإبليس كان ولم يزال... تلك الألوهة التي (سقطت) فتجسدت مادة... ذلك العدم الذي أضحى وجوداً... وتلك اللانهاية التي أضحت مسافة وزماناً... فـ«سقط عن العين»...

وأحمد كان ذاك النبي الإنسان الذي «كشف له عين العين» كلمح البصر...فتنبه الناس لألوهته التي لم يدركها هو كإنسان...

و«السيد الغريب... أحسن ا لله مثواه» كان يتمزق من خلال مأساته حين يدرك أن...

---

[1]: DEMON EST DEUS INVERSUS : الشيطان هو الإله معكوساً.

«ما كان في أهل السماء موحد مثل إبليس، حيث ألبس عين العين وهجر اللحوظ والألحاظ في السر وعبد المعبود على التجريد، ولعن حين وصل إلى التفريد، وطرد حين طلب المزيد...»

وقلبه الصافي، وهو الغريب عن هذا العلم وابن أعماقه، كان يقطر دماً حين تلمس... مأساة تحقيق «غيب الغيب» لذاته من خلال الوجود... وما الوجود سوى انعكاس الغيب... وما طريقه سوى الفناء والعدم... طريقاً إلى الذات من جديد... وأيضاً...

كان قلب «السيد الغريب...أحسن الله مثواه» لمأساته ومأساتنا، يبكي وهو يعني قطعاً ما يقول أن:

«قيل لإبليس (اسجد!)، ولأحمد (انظر!). هذا ما سجد، وأحمد ما التفت يميناً ولا شمالاً: (ما زاغ البصر وما طغى)/ ٥٣ ـ ١٧/».

وقلبه المزق الصافي كان يفهم... أن (التجربة الكبرى) للألوهة المتجسدة هو إغراء السجود لانعكاس ذاتها... وهذا ما كان للألوهة المتجسدة، ولا لأبنائها المختارين، مقبولا... حيث...

«إبليس...ادعى تكبره ورجع إلى حوله» و«أحمد ادعى تضرعه ورجع عن حوله»... فمصير المادة أن تسعى من خلال مقاومة ذاتها إلى عدمها... كمصير الإنسان المزق والتوحيد أن يعود رغم الخطيئة و... من خلال الألم والندامة والمحبة إلى...أصوله...

وإني وإن هجرت فالهجر صاحبي	وكيف يصح الهجر والحب واجد
لك الحمد في التوحيد في محض خالص	لعبد زكي ما لغيرك ساجد

يا إلهي... وحكمتك قد شاءت أن لا نكون من خلال عالمنا سوى انعكاس كليتك التي تجلت لمريدك الملهم الذي أدرك بفضلك جوهر الأشياء... ففهم تلك الحكمة المستورة التي لن يفهمها الخنازير...تلك الحقيقة الخالدة التي تقتل مريدها... وتحييه في الوقت نفسه إلى الأبد...

ويعيد المريد الذي تيقظ لحقيقته طريقه بنزاهة لامتناهية... أعيد قراءة الأشياء بأعين جديدة... فتتكشف لي عن روائعها وعن مكامنها...

فيعيد مريدنا النظر... ويحاور موسى والأنبياء والبشر... فقد...

«التقى موسى وإبليس على عتبة الطور، فقال يا إبليس! ما منعك من السجود؟ ـ فقال: منعنى الدعوى بمعبود واحد ولو سجدت لآدم، لكنت مثلك. فإنك نوديت مرة واحدة (انظر إلى الجبل) /١٤٣:٧/ فنظرت. ونوديت ألف مرة: أسجد! فما سجدت، لدعواي بمعناي»

فإبليس كان معلم موسى... وكان المنادي له على الجبل... وإبليس «كان في السماء داعياً، وفي الأرض داعياً، في السماء داعي الملائكة يريهم المحاسن، وفي الأرض داعي الانس يريهم القبائح».

وموسى، كسواه ممن سبقه وتلاه من الأنبياء كان داعي الانس لمن دعاه ينهاهم عن القبائح ويسجد لإلهه... أما إبليس، وما هو سوى انعكاس ذاته، فـ«ما سجد لأحد، ولا اذل لشخص وجسد، ولا عرف ضداً ولا ولداً...» ومن مقارنة الاثنين إن جازت المقارنة نجد أن...

السابق هو قطعاً، من اختار الفناء من أجل المطلق واللاوجود من أجل الوجود...فلولاه لما عرفت المادة ذاتها... ولولاه لما عرف الإنسان أصوله...

«لأن الأشياء، تعرف بأضدادها، والثوب الرقيق ينسج من وراء المسح الأسود، فالملاك يعرض المحاسن ويقول للمحسن: إن فعلت جزيت. وإبليس يعرض القبائح ويقول: إن فعلتها جزيت مرموزاً. ومن لا يعرف القبيح لا يعرف الحسن».

فإبليس ربما، كان فرعون الذي غرق وهو يقول كما جاء حقاً في كتاب الله الكريم «آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل...» /١٠- ٩/.

وذاك كان ما قدمته الكتب من خلال انعكاسه... وذاك كان ذلك السر العظيم الذي تلمسه مريدنا في حينه ربما، من خلال البصري... والذي يعتقد أن الجنيد قد رفض في حينه أن يساره به... ولكن التساؤل يبقى وقد عدنا من جديد إلى الجنيد والحلاج هو...

أحقاً لم يتلمس المعلم في حينه حقيقة تلميذه؟.. فتخلى عنه، تاركاً إياه ليتابع الطريق وحيداً... إلى حيث نهايته المحتمة؟...

وما وصلنا من سير يؤكد أن المعلم قد تلمس فعلا مصير تلميذه... حيث في كل السير نجد تكرار ذلك التساؤل عن... «أن خشبة تفسدها...»؟!. وما وصلنا من كتابات للجنيد تؤكد أن حال الحلاج تتطابق تماماً مع تجلياته للقداسة؟!.

وأتأمل بما قاله يوماً الأستاذ نهاد خياطة في محاضرة له بعنوان «عناصر الفلسفة الدائمة» أن «...إذا كان الموطن المقصود (للمريد) هو الألوهة، فنحن أمام تجربة ميتافيزيقية يسميها بعضهم حجاً أو عروجاً، ويسميها بعضهم الآخر كشفاً أو تصوفاً، كما يسميها آخرون حكمة. ومحصلة هذه التجربة هو دائماً إما تأسيس لدين جديد أو تعميق لنظام ديني طغت عليه سطحية أو حرفية قاتلة، أو تصحيح لخلل أصاب هذا الجانب أو ذاك من النظام. فعندئذ نكون أمام زندقة أو هرطقة تنتهي بصاحبها إما إلى القتل أو إلى النصر. القتل إن طرح محصل التجربة أمام الخنازير التي ما تلبث أن تدوس الورد بأقدامها ثم ترتد لتمزق وتفتك بالذي تجرأ وأعلن خروجه على المألوف. هذا إن كان محصل التجربة غير مؤيد بالظروف التاريخية (وأفكر بالمسيح أو الحلاج فهذه حال جميع المريدين الأقرب بقلوبهم إلى الألوهة الحقة). والنصر (وأضيف، أو البقاء الأرضي) إذا صيغ هذا المحصل صياغة تعبر عما لم يستطع أن يعبر عنه متلقون كانوا يتطلعون إلى نفس ما ترمي إليه التجربة الدينية من معطيات (وأفكر بالجنيد)...» وأتابع حالاً مسار حلاجنا...

(٦)

وحيداً على الطريق...

حيث، لما تمزق قلبه الطاهر من جفاء رفاقه القدامى... كان انتقاله مع أسرته إلى تستر... مسقط رأسه... حيث بقي معتكفاً ما يقارب السنتين...دارساً ومتأملاً قبل أن يباشر دعواه...

وقد بدأ الحلاج، كما تؤكد الأسطورة، هذه المرحلة من حياته واعظاً في الأهواز، بالقرب من موطنه القديم، زاهداً في خرقة التصوف نفسها... متنقلاً من مدينة إلى أخرى ومن مسجد إلى أخر مبشراً أمام العامة بأحاديث ملهمة قصيرة... تدعو من حيث العقيدة إلى الإسلام وتحققه التدريجي في القلوب... ثم توجه إلى «...خرسان وما وراء النهر ودخل سجستان وكرمان ثم رجع إلى فارس...» فتوقف في الطالقان بشرقي إيران، حيث كانت تقوم حكومة شيعية زيدية... وإذ لم تطب الإقامة للحلاج هناك، عاد إلى الأهواز ومنها قصد بغداد، بصحبة جماعة من مريديه، ليقيم فيها مع أسرته...ولكن...

يبدو أن الظروف لم تكن في حينه مواتية تماماً لإقامة حلاجنا في بغداد وخاصة... بفعل خصومة الصوفية له... وكان وقد ضاقت به الحال من جديد أن توجه إلى مكة ليحج حجته الثانية «...(مع أربعمائه من تلاميذه) وهنا اتهمه بعض أصدقائه القدامى من الصوفية بالقيام بأعمال سحرية والاتصال بالجن».

ثم كانت رحلته التبشرية الثانية الأطول والأوسع والتي شملت التركستان والهند وحتى حدود الصين... وحيث اكتمل نضجه وعلمه حقيقة ومذهبا وسلوكا...يقول...

أشار لحظى بعين علم	بخالص من خفى وهم
ولائح لاح في ضميري	أدق من فهم وهم همى
فخضت في لج بحر فكري	أمر فيه كمر سهم
وطار قلبى بريش شوق	مركب في جناح عزمى
إلى الذي إن سألت عنه	رمزت رمزاً ولم أسم
حتى إذا جزت كل حد	في فلوات الدنو أهمى
نظرت إذ ذاك في سجل	فما تجاوزت حد رسمى
فجئت مستسلماً إليه	حبل قيادي بكف سلمى

قد وسم الحب منه قلبي بميسم الشوق أي وسم
وغاب عني شهود ذاتي بالقرب حتى نسيت إسمي

«ومن هنالك عاد إلى مكة حاجاً للمرة الثالثة والأخيرة. والمعروف أن جوهر الحج هو في الوقوف بعرفة ثم التضحية منها... (وهناك)... وقف حلاجنا ـ حيث يذكر المرء أسماء جميع من يحبهم حتى يغفر لهم ـ وصاح صيحة الجميع (لبيك!) وساءل الله أن يزيده فقراً، فيجعل الناس تنكره وتنبذه حتى يكون الله وحده هو الذي يشكر نفسه بنفسه خلال شفتي الحلاج»... يقول...

يا لائمي في هواه كم تلوم فلو عرفت منه الذي عانيت لم تلم
للناس حج ولي حج إلى سكني تُهدى الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي
تطوف بالبيت قوم لا بجارحة بالله طافوا فأغناهم عن الحرم

ويعود حلاجنا إلى بغداد وقد قطع خلال تجواله عهداً مع ذاته ببذل حياته في سبيل حقيقته التي «يهدي (ها) مهجت(ـه) ودم(ـه)...».

(تأمل)

أنت الآن وحيداً يا صديقي، وفي قلبك تتوقد شرارة لن تنطفىء... أنت الآن وحيداً... وتتأمل في العالم المحيط...

والعالم المحيط هو الخليقة... هوتحقيق «المطلق ــ العدم» لذاته... ودربها من حيث نحن طويل وصعب ولكن ما أجمله إن فهمته!... وإن وعيته فهل من سواه؟...

والدرب هو من خلالك يا صديقي... يا أنا وأنت يا إلهي... ويلبي المريد الحق نداء أعماقه فـ...

لبيك لبيك يا سري ونجوائي لبيك لبيك يا قصدي ومعنائي
أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل ناديت إياك أم ناجيت إيائي
يا من علقت به روحي فقد تلفت وجدا فصرت رهينا تحت أهوائي
أدنو فيبعدني خوفي فيقلقني شوق تمكن في مكنون أحشائي

وليس يعلم ما لاقيت من أحد	إلا الذي حل مني في سويدائي
ذاك العليم بما لاقيت من دنف	وفي مشيئته موتي وإحيائي
يا غاية السُؤْل والمأمول يا سكني	يا عيش روحي يا ديني ودنيائي
قل لي فديتك يا سمعي ويا بصري	لم ذا اللجاجة في بعدي وإقصائي
إن كنت في الغيب عن عيني محتجباً	فالقلب يرعاك في الابعاد والنائي

وقلب المريد هو في النهاية راعي الألوهة وملاذها ههنا... وهدف المريد أضحى تزاوج القلب والواعية من أجل تحقيق وعي الذات للذات من خلال الخليقة...

وينطلق مريدنا إلى العالم من خلال دعواه...

والحق نقول، أن المريد الحق المنطلق بدعواه إلى سواه هو ذلك الذي اكتشف الألوهة من خلال قلبه... ذلك الذي اكتشف في أعماقه «قدس الأقداس» حيث يسكن ذلك الذي يمكن وصفه كالهندوس بـ«معلم الإنسانية» أو آل «غورو»...

والمريد الحق في عالمنا هو إنسان من هذا العالم... يعيش أفراحه ومآسيه... يعاني من الظلم ويرفضه لنفسه ولسواه... يحزن... يفرح... يحب... يتألم... ويحلم كسواه من البشر... مع ذلك الفارق أن أعماقه تتسع لأكثر بما لا يقاس مما يستوعبه سواه من حزن وفرح و... محبة وألم و... ألوهة...

من خلال طبيعته البشرية يفترض أن يحب المريد في عالمنا أشياء من هذا العالم ولكن... من خلال ذاك الذي في أعماقه... يكتشف المريد قدسية الأشياء وما فوقها... إن لم نقل طبيعتها الإلهية...

وتدفعه محبته اللامتناهية وحيداً من خلال الفداء إلى... جحيمها...

وحلاجنا المنطلق من أعماق إسلامه... كان قد اكتشف وكاشف الحق من خلال قلبه كما كاشفه رسوله من قبله... وعلى مثال رسوله... وكل الرسل... كان انطلاق مريدنا إلى العالم ليحقق من خلال ذاته ودينه ودنياه ما هو مرسوم منذ الأزل ولم يتحقق بعد... فاستوجب أن يكون حتى تتحقق الغاية من الخليقة... أقصد...

(٧)

المسيح أو... ألوهة الإنسان...

والمسيح وفق المسيحية التي أعني ليس ربما ذلك الشرع الذي يحمل اسمها والذي أنتمي من حيث الأصول الأرضية إليه... وقد لا يكون أي شرع آخر سواه... (مع التأكيد أني لا أنفي على أبناء أي شرع حقيقتهم) إنما...

هو «الكلمة» الذي كان في البدء... والذي كان عند الله... والذي هو الإله... لا إله إلا هو... ذاك الذي...

ما وحد الواحد من واحد	إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نطقه	عبارة أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده	ونعت من ينعته لاحد

هي «جوهر الشرع»...

هو «الحقيقة» المستورة في أعماقه...

هي «الصليب»... مفتاح الحياة... ورمز تقاطع الروح والمادة من خلال الخليقة الواعية لذاتها... ومن خلال كل هذا...

هو «الحياة الأزلية» المنبثقة من موت الإله... إن لم نقل...

هي «الفداء»... الذي جعل «السيد الغريب» يصيح من أعماق إسلامه...وقد تجلت الحقيقة أمام عينيه...

ألا أبلغ أحبائى بأنى	ركبت البحر وانكسر السفينة
على دين الصليب يكون موتى	فلا البطحا أريد ولا المدينة

يا إلهي وقد قضيت جل حياتي عن جهالة باحثاً عنك بكل عقلي... لما جعلتني أصرخ ألماً... عن وعي... بعين قلبي... أن... لا إله إلا...

أنت يا إله آدم وقاين وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب...

أنت تحديداً (ومن يحدك) يا إله موسى وبوذا وعيسى وأحمد...

وحكمتك قد شاءت وقد مايزت ابن الدم والطين عن سواه من خلال عقله... إن تعيده إليك من خلال قلبه... فآدم كان منذ البدء على صورتك... إن لم نقل كان انعكاسك... واستمرارك كان... من خلال قاين الذي حميته... وشيت الذي انتقيته... ونوح الذي هديته وأنقذته... وأيضاً...

من خلال إبراهيم... وإسماعيل... و/ أو... إسحق... ومن هذه الأرض «... حيث التين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين...» كانت مسيرة... أبناء عصرك الحديدي...

نعم وبكل محبة أقول مع أبو المغيث... إن المسيح وفق المسيحية التي أعني هي ذلك... السر الأعظم... وأول الأسرار في عالمنا وآخرها...

ذلك الذي يقول أن كل إنسان هو من حيث الجوهر... مسيح بالقوة... أو لنقل، إن في قلب كل إنسان ومن خلال روحه وعقله... توجد بذرة الوهة... فـ...

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهرا ... في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

وهذا هو جوهر الأديان الذي جعل «السيد الغريب» يقول محقاً أن...

تفكرت في الأديان جداً محققا ... فألفيتها أصلاً له شعب جما

وما نقوله... وسبقنا «السيد الغريب» إليه قد يكون من منظار أهل الظاهر كفرا!... ولكن...

إذا بلغ الحب الكمال من الفتى ... ويذهل عن وصل الحبيب من السكر
فيشهد صادقاً حيث أشهده الهوى ... بأن صلاة العارفين من الكفر

والمريد حين «يذهل عن وصل الحبيب من السكر»، يكون قد لامس حقيقته المستورة في أعماق جحيمه... ويكون قد تجاوز الأنبياء من خلالها... وقد تجاوز البشر ويكون قد قارب ههنا، في عالمنا، من...

(٨)

المصير المحتم...

حيث يقال، أنه لما عاد الحلاج هذه المرة إلى بغداد، «صرح برغبته في أن يموت (كمن سبقه على الصليب) من أجل الجميع...» قائلا...

أقتلوني يا ثقاتي	إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي	وحياتي في مماتي
آن عندي محو ذاتي	من أجل المكرمات

وكان أيضاً كما يقال أن «أقام ببيته كعبة مصغرة، وفي الليل كان يصلي عند القبور (قبر ابن حنبل)، وفي النهار، كان يلقي على قارعة الطريق في بغداد بأقوال غريبة: فكان يصيح في الأسواق وهو في حال من النشوة والطرب: يا أهل الإسلام! أغيثوني! فليس يتركني ونفسي فآنس بها، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها، و هذا دليل لا أطيقه...».

وكأن مريدنا الشاعر بقرب مصيره المحتم قد بات تواقاً إلى ذلك المصير... خاصة، أنه مع ازدياد حلقة مريديه، كانت تزداد دائرة أعدائه... وبعضهم كان كما رأينا من رفاقه القدامى من المتصوفة... والبعض الآخر كان من الشيعة بسبب «رسائله ذات الاتجاه المذهبي والتي يقال أن الحلاج قد كتبها من قبل عن موضوعات كانت مثار خلاف وجدل معهم (حول الأئمة الاثنى عشر ربما)...» وبعضهم الآخر من أهل السلطة والذين تخوفوا من دعواته الصريحة وسعيه الدؤوب للإصلاح الديني والدنيوي من خلال رسائل بهذا الخصوص إلى الحسين ابن حمدان ونصر وابن عيسى... وأخيراً كما يقال بسبب عواطفه إن لم نقل... صلاته القرمطية...

وكان اعتقاله لأول مرة على يد القاضي محمد بن داوود الذي طالب حكما بقتله ولكن «... اقتراحه هذا، وقد وقع عليه آخرون، اصطدم

بمعارضة قاض آخر، شافعي، هو ابن السريج الذي قال أن مثل هذا الألهام الصوفي لا يدخل في اختصاص المحاكم الشرعية، مما أنقذ الحلاج...» موقتاً...

وتتصاعد الأحداث... فإلى تلك الأيام ينسب قوله الخالد والذي يروي من بين قصص أخرى أنه قاله بحضور مريده وصديقه الشبلي في جامع المنصور ببغداد...

(٩)

«أنا الحق...»

وأقف خاشعاً... إذ أتلمس الحقيقة وقد تجلت لمريدها... وكل ما قاله وعاشه وكان ينطلق منها... بات يعود إليها...

أقف خاشعاً... وأسترجع بعضاً من أحواله تقول أن...

يا سر سر يدق حتى ... يخفى على وهم كل حي

وظاهرا باطنا تجلى ... لكل شيء بكل شي

إن اعتذاري إليك جهل ... وعظم شك وفرط عي

يا جملة الكل لست غيري ... فما اعتذاري إذن إلي

فأنا...

لست أنا ولست هو ... فمن أنا ومن هو

لا و«أنا» ما هو أنا ... و«لا أنا» ما هو هو

إنما...

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

خاصة أنه قد...

وحدني واحدي بتوحيد صدق ... ما إليه من المسالك طرق

أنا الحق والحق للحق حق ... لابس ذاته فما ثم فرق

قـد تجلـت طوالـــع زاهـــرات يتشعشـــعن في لوامـــع بـــرق

حيث...

صـــيرنى الحـــق بالحقيقـــة بـــالعهد والعقـــد والوثيقـــة

شـاهد ســـري بـــلا ضمـــيري هـــذاك ســـري وذا الطريقـــة

وكان ذاك (هو) سره فعلاً... وكانت تلك (هـي) طريقته التي أوصلته (إليه) حقيقة...

وأسترجع بعضاً مما أورده بهذا الخصوص يوماً الأستاذ والمعلم الكبير نهاد خياطة أن «... قد جاءت قولة الحلاج هذه متضمنة في كتابه الطواسين الذي الفه في السجن ولم يكشف عنه النقاب إلا بعد استشهاده. يقول الحلاج في هذا الكتاب:

/إن لم تعرفوه (الله) فاعرفوا آثاره، وأنا ذلك الأثر، وأنا الحق لأني مازلت أبداً بالحق حقاً. وإن قتلت أو صلبت أو قطعت يداي ورجلاي ما رجعت عن دعواي./.... (حيث)...

واضح من هذا التعليل الذي يقدمه الحلاج أنه يعتبر العلاقة بين المؤثر والأثر ذات طبيعة عضوية لا ميكانيكية، أي أن الأثر غير منفصل عن المؤثر من كل وجه، أو أن العلة مبطونة في المعلول، وبالتالي إن الأثر دليل على المؤثر لا يعرف إلا بما ينتج عنه من آثار، حتى ليمكننا القول أن الأثر هو المؤثر، لكنه ليس به في نفس الوقت، مثلما يمكننا القول إن هذه اللوحة هي الفنان التي أبدعها وليست به في نفس الوقت. فهي هو من حيث إنها ذاته وقد أصبحت موضوعاً في العالم الخارجي، وهي ليست به من حيث إن ذاته ظلت محتفظة بجوهرها بما هي صرفة في معزل عن تجلياتها أو إسقاطاتها أو إبداعاتها.

فـ«أنا الحق» الحلاجية ليست مطلقة من كل وجه، بل هي مطلقة من جانب ونسبية من جانب آخر: مطلقة بما تمثل «الذات الإلهية في تجلياتها الأسمائية»، ونسبية بما هي «محل هذه التجليات» فهي «مطلقة نسبياً»، على حد تعبير ف. شيون. إذ لو كانت مطلقة من كل وجه لكانت حلولاً بما هو امتصاص للمبدأ في تجلياته».

ويوضح الأستاذ الكبير هذه الفكرة في بحث آخر قائلاً: «في المطلق حيث تتآلف المتضادات لا كفر ثمة ولا إيمان، لا خير ولا شر، لا نور ولا ظلام ـ وبالتالي، لا حلال ولا حرام، ولا جنة ولا نار... أما في النسبي، حيث الحجاب مسدل على الحقيقة، أو إن شئت على القلوب والبصائر، وحيث المتناقضات على احتدامها، والمتباينات على تفردها، فلا سبيل إلا الشريعة يعمل الإنسان على هدى منها، ولا طريق إلا العبادات يتطهر بها من أوضار الحياة اليومية ومن متطلبات الغرائز. والصوفي المتحقق، إذ يرجع من المطلق إلى النسبي، إنما يكرر «الخطيئة الأولى» التي هي قدره، مثلما كانت قدر أبويه آدم وحواء. كل ما يقوله أو يفعله في النسبي فهو نسبي، فإن كان خيراً انطوى على شر، وإن كان إيماناً انطوى على كفر، وإن كان صلاة كانت صلاته من / الشرك الخفي/، أو الكفر. وعند الصوفي، الانتقال من الجمع إلى الفرق، كالهبوط من السماء إلى الأرض، خطيئة. من هنا كانت «صلاة العارفين من الكفر!»».

ولصلاة العارفين في هذا العالم النسبي مصيرها المحتم الذي استوجبته حتى الساعة عموماً... وعلى هذه الأرض حيث «التين والزيتون وطور سنين...» تحديداً...

فكما للسيد المسيح من أرضية الشريعة الموسوية سابقاً... كذلك للسيد الغريب أحسن الله مثواه، من أرضية الشريعة المحمدية لاحقاً... كان ما كان منذ الخليقة وسيبقى حتى نهايتها درب صليب العارفين... وذلك...

(١٠)

الفصل قبل الأخير...

وتتلاحق الأحداث... ففي عام ٢٩٦ هـ. كانت محاولة فاشلة في بغداد، للسنة الداعين إلى الإصلاح لإقامة خلافة حنبلية... تلتها عودة الخلافة إلى المقتدر، الذي كان غلاماً صغيراً... وترأس الشيعي (ابن الفرات) للوزارة... وكان أمر منه باعتقال الحلاج وعدد من أتباعه الذين كانوا على صلة بأصحاب المحاولة الفاشلة... ثم قبض على الحلاج الذي

بقي متخفياً بعد ثلاث سنوات من ذلك... وجيء به إلى بغداد حيث ابتدأت قضيته النهائية التي استمرت تسع سنوات... والتي نوجزها مع ماسينيون كما يلي...

«... سنة ٣٠١هـ = ٩١٣م جاء وزير جديد هو علي بن عيسى القُنّائي، وكان أحد أعضاء وزارته وهو حمد القنائي، ابن عمه، حلاجياً صريحاً، فأفسد القضية مؤقتاً، ومنع كبير القضاة من النظر فيها... وأطلق سراح تلاميذ الحلاج. وكل ما استطاع خصومه الظفر به هو عرضه مصلوباً ثلاثة أيام بحجة كاذبة هي أنه داعي القرامطة» ...ثم حبس في دار السلطان، ولكن يُسمح له بأن يعظ في المسجونين، فروجوا في القصر رسالة للوارجي تصف «شعبذة» الحلاج وحيله السحرية.

ثم كانت وزارة ابن (الفرات الثانية) ما بين (٣٠٤ و٣٠٦هـ) وحيث لم يجسر هذا الأخير «... أن يعيد فتح باب القضية من جديد، خوفاً من والدة الخليفة... وقد استطاع الحلاج وهو في حبسه أن يكتب مؤلفاته الأخيرة، وإحداها...، وهو «طاسين الأزل» يبين لنا المرحلة الأخيرة من تطور فكر الحلاج...

ثم «كانت الأزمة المالية التي أدت في سنة ٣٠٧هـ. إلى تشكيل وزارة إئتلافية سنية، دخل فيها حامد، وهو محصل خراج قاس، إلى جانب ابن عيسى، وهو فيزيوقراطي فاضل. وانتصر ابن عيسى أول الأمر فخفف من قسوة الضرائب بفضل بيان لميزانية الدولة الإسلامية صار مشهوراً بحق، فجاء حامد و أراد صد هذا الهجوم بأن أغرى الخليفة بمضاربة مروعة في المخزون من القمح المحتكر، فأجاب ابن عيسى عن هذا بإثارة فتنة شعبية ضد «ميثاق الجماعة» (وفيها أطلق نصر القشوري حبل العمل للحنابلة). فقامت نقابات الصناعات الصغيرة في بغداد (كما في البصرة ومكة والموصل من قبل) وهاجمت المحتكرين والمخازن، وفتحت السجون (ويقال أن الحلاج رفض الفرار من حبسه)، وارتحل حامد إلى واسط حذراً وفطنة. وبعد بضعة أسابيع استفاد حامد من عودة مؤنس كبير القواد إلى بغداد، كيما يعود إلى المدينة. وكان مؤنس قد جاء بعد أن أنقذ دولة

العباسين في مصر من الفاطميين في المغرب، فكان عليه أن يحميها في إيـران ضد تهديد الديالمة في الشرق...».

وكان شبه انقلاب في الاتجـاه السياسـي مـن خـلال... «...التشـديد في جباية الضرائب وزيادتها...» وكان حلفاً بين مؤنس وحامد الـذي «...قـرر استئناف النظر في قضية الحلاج...».

«وبدون تفطن، تظاهر الحنابلة ضد حامد، ودعـوا علـى هـذا الوزيـر في شوارع بغداد، من أجل الاحتجاج ضد سياسته المالية ومن أجل إنقاذ الحـلاج معا (وذلك بتحريض من أحد الحنابلة من أنصار الحلاج وهو ابن عطاء)...».

و«...كسب حامد المعركة، من خـلال الدعـوة للمحافظـة علـى النظـام، فصـار بوسـعه أن يقـدم ابـن عطـاء للمحاكمـة أمـام تلـك المحكمـة الـتي لم تستطع أن تجد شهادة حاسمة ضد الحلاج... و... أسيئت معاملـة ابـن عطاء الذي مات مما أصابه من الضرب...».

وجاء دور الحلاج...

وقـد «... اسـتطاع حـامد أن يتـآمر مـع القـاضي المـالكي، أبـي عمـر الحمادي، وهو معروف بتملقه لسلطان القائمين بالأمر، علـى الحكـم الـذي سيصدر بإعدام الحـلاج وأسـبابه، وذلـك بالاحتجـاج بمذهـب الحـلاج في الاستغناء عن الحج ليشبه أمره بـأمر القرامطـة الثـائرين الذيـن أرادوا هـدم الكعبة... وفي الجلسة نطق القاضي أبو عمر، وقد استحثه الوزيـر، بـالحكم فقال: «يا حلال الدم»... وفي اليومين التاليين بذل نصر أمير البـلاط ووالـدة الخليفة سعيهم لدى الخليفة ـ وكان مصاباً بالحمى ـ فبدل حكـم الإعـدام، ولكـن حـامد لـوح أمـام الخليفـة بشـبح ثـورة اجتماعيـة حلاجيـة... وفي الغداة... وقع الخليفة أمراً بإعدام الحلاج...

وفي الثالث والعشرين مـن ذي القعـدة أعلنـت الأبـواق أن الوزيـر يتهيـأ لتنفيذ حكم الإعدام... واسلم الحلاج إلى رئيـس الشـرطة بـن عبـد الصمـد، واتخذت الشرطة الاحتياطات للحيلولة دون اندلاع ثورة...

وفي الرابع والعشرين، بباب خراسان، وبحضرة مجلس للشـرطة، وأمـام جمع غفـير، جـيء بـالحلاج، وضـرب ألـف سـوط وقطعـت يـداه ورجـلاه

وصلب وهو لا يزال حياً... ولم يأت أمر الخليفة بالإجهاز عليه إلا عندما وافى المساء. فأجل الإعدام إلى صبيحة الغد حتى يستطيع الوزير حضور نطق الحكم... وكان...

أن حامداً قد وجد من الحكمة أن يخلي نفسه (هو والخليفة) من المسؤولية فدعا الشهود الموافقين على الحكم بصوت عال وكانوا مجتمعين أمام المقصلة حول ابن مكرم ــ وهم المثلون المخولون للأمة الإسلامية ــ وطلب منهم أن يصيحوا قائلين: (نعم، اقتله! ودمه في رقابنا)... وسقطت رأسه، وصب على جذعه الزيت وأحرق بالنار، وألقي برماده من أعلى المئذنة في الدجلة...».

وقد كان ذلك في ذلك اليوم الموافق لـ ٢٦ من آذار عام ٩٢٢ لميلاد السيد المسيح... ولكن، يقال...

أن من على خشبة صليبه... وكالسيد المسيح... سامح السيد الغريب مضطهديه... فعنه تنقل الأسطورة عشية مقتله، ذلك القول البليغ...:

«... وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك، وتقرباً إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت. فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد...».

(تأمل وصلاة)

آه أبا المغيث... وقد مضى ما يزيد عن ألف عام على مأساتك... ماذا بوسعنا أن نقول، سوى التأمل بمرارة والترداد ببلاهة أن قد ازددنا ابتعاداً وازددنا جهالة...

آه أبا المغيث... وقضيتك ربما على صعيد ماديتنا... قضية شريعة تجاوزتها... أو «ثغرة أحدثتها..... ولم يسدها إلا رأسك»... كما قال من كان يفترض أن يكون في حينه أول أتباعك... وربما كانت أيضاً، على صعيد روحانيتنا التي لم تكتمل... ان لم يتعرف الوجدان الجمعي من خلالك في حينه على مسيحه كما لم يتعرف سواه من قبل...

آه أبا المغيث... وقد كنت تعلم حين صلبت أن الصليب هو مفتاح الحياة... وأن فداء نهايتك ههنا لم يكن سوى البداية و لكن...

ربما كانت النهاية دائماً، عودة إلى البداية... ربما، كلا قطعاً هي كذلك... ففي النهاية، كما في البداية، يبدو كل شيء وكأنه وهم... وفي النهاية، فإن ما كان متواجداً منذ الأزل و سيبقى هو...

أنت... الذي لا يذكر اسمك، ولا ينطق... أبانا وإلهنا... حيث...

ربما كانت مأساتك أن كان عليك أن تتجسد من خلال ثنائيتنا امرأة قبل أن تتجسد رجلاً... ربما، كلا قطعا هنا أيضاً... وما من أحد منا بوسعه إدراك كامل مقاصدك... كان أن تجسدت من خلال البيضة الأولى... وأن ولدت ومت كما تلد وتموت... هي... التي ندعوها مريم أو إيزيس... أم ابنها وزوجه... هي...

سيدة الأفراح والمآسي... أمنا وأم إلهنا... الذي هو...

ابنها الذي كان متواجداً أيضاً، منذ الأزل وسيبقى... السيد المسيح الغريب الذي يقتل كل يوم على يدنا ويولد كل يوم في قلوبنا من جديد فـ...

سلام عليك أبا المغيث وقد أضحيت مسيحاً... وإلهاً...

سلام عليك وقد فهمت وحققت كونك «الحق»... حقيقة...

دمشق ١٧/٦ / ١٩٩٦

أكرم أنطاكي

المراجع:

١ ـ La Passion de Hallaj - Louis Massignion - Tome 1- 4
٢ ـ ديوان الحلاج ـ جمع لويس ماسينيون.
٣ ـ الطواسين ـ الحسين أبو منصور الحلاج.
٤ ـ شخصيات قلقة في الإسلام ـ عبد الرحمن بدوي.
٥ ـ الحلاج بين فنائين ـ الأستاذ نهاد خياطة.
٦ ـ نماذج من شطحات الصوفية ـ الأستاذ نهاد خياطة.
٧ ـ عناصر الفلسفة الدائمة ـ الأستاذ نهاد خياطة.
٨ ـ La Doctrine Secrete - H.P. Blavatsky

الحلاج وجدلية الاتصال والانفصال

[.. يا من لازمني في خلدي قرباً، وباعدني بعد القدم من الحدث غيباً، تتجلى عليّ حتى ظننتك الكل، وتسلب عني حتى أشهد بنفيك، فلا بعدك يبقى، ولا قربك ينفع، ولا حربك يغني، ولا سلمك يؤمن..][1].

لعلّ القول السابق للحسين بن منصور الحلاج المولود عام ٢٤٤ هـ،٨٥٧ م والمقتول عام ٣٠٩ هـ،٩٢٢م يقدم أحد المفاتيح الهامة في فهم تجربته الحياتية (وبالتالي الصوفية) هذه التجربة التي يمكن اختصارها بجدلية «الاتصال والانفصال» كما سنرى من خلال دراسة تجربته من الداخل، لكن قبل ذلك أجد من الضروري الحديث عن الإطار الاجتماعي ـــ التاريخي، الذي نشأت، وتلونت به شخصية الحلاج.

عاش الحلاج في ظل الدولة العباسية، في طورها الثاني، أي طور انحدارها. هذه الدولة التي قضت على مبدأ «العصبية» الأموي كأساس لسياسة الحكم، واتخذت بدلاً منه أساساً ذا طابع ديني، يضع الخليفة في موقع «خليفة الله في الأرض»، وبذلك فقد استخدم الحاكم صفته كخليفة لله لفرض سلطته المطلقة في كافة مناحي الحياة، باسم هذه «الإرادة الإلهية».

تبعاً لذلك، فقد أعطت هذه الدولة لنفسها الحق [.. في أن تكون لها سلطة على أفكار الناس، وعلى طرق تحصيلهم المعرفة... وعلى المصادر

[1] أخبار الحلاج: ص ١٩ ل.ماسينيون و ب.كراوس. باريس ١٩٣٦.

التي يعتمدونها في تحصيل المعرفة.. وعلى الدولة ـ تبعاً لذلك أن تحصر مصدر المعرفة في المصدر الإلهي: أي الوحي..][2].

ضمن هذا الإطار الاجتماعي أخذت الحركة الصوفية أبعادها، كشكل من أشكال الرد العفوي على استبدادية الحاكم: الاقتصادية والاجتماعية والإيديولوجية، وقد تجلى هذا الرد في جانبه الإيديولوجي في ما طرحه المتصوفة من إمكانية معرفة ا لله والوصول إليه عن غير طريق الوحي (وبالتالي عن غير طريق الحاكم الذي حصر مصدر المعرفة بهذا الطريق) هذا الرد الإيديولوجي لم يكن منفلتاً عن الإطار الاجتماعي ـ الاقتصادي الذي وُجد فيه، لذلك لم يكن، ولا كان باستطاعته أن يكون غير ذلك (أي أن يكون مفارقاً بالكلية للبنية المعرفية السائدة). لذلك لجأ المتصوفة، محكومين، بمستوى الوعي السائد، إلى تحطيم احتكار الحاكم للدين باستخدام مفهومي «الظاهر» و«الباطن» [.. ليتمكنوا بذلك من البقاء ضمن هذا الواقع، ومن الثورة عليه في وقت واحد..][3]. وما ساعدهم في ذلك أن مسألة الظاهر والباطن وبالتالي مسألة «التأويل» لها أصل قرآني معروف: [.. هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات، وأخر متشابهات ـ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ـ وما يعلم تأويله إلاَّ ا لله والراسخون في العلم..][4]. ـ وبداهةً أن يقول المتصوفة أنهم هم «الراسخون في العلم» وبالتالي فإن من حقهم تأويل القرآن الكريم وفق معطيات علمهم «الذوقي» الذي اتخذ مفهوماً للمعرفة [.. يصل بين ا لله والإنسان مباشرة بطريق المشاهدة الباطنية (ملغياً) بذلك كل وساطة بينهما حتى وساطة الوحي والنبوة..][5]. وفي هذا السياق يصدق القول أن المتصوفة والحلاج على رأسهم كانوا يعملون على هدم [.. الجدار «الرسمي» الفاصل بين ا لله والإنسان..][6].

---

[2] النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ـ ج ٢ ـ حسين مروة ـ ط ٢ ـ ص ٢٠١.

[3] نزعات ـ مصدر سابق ـ ص ٢١١.

[4] قرآن كريم ـ سورة آل عمران ـ آية ٣.

[5] نزعات: مصدر سابق ص ٢١٨.

[6] نزعات: مصدر سابق ص ٢١٨.

ومن كان يمثل هذا الجدار أكثر من الحاكم الذي يحتكر طرق الوصول إلى ا لله عبر الشريعة؟!.

ضمن هذا المناخ يمكن البدء بتلمس خصوصية تجربة الحلاج، من داخلها، ضمن إطار التجربة بعامة:

من جملة أقاويله، وما وصل من أخباره، وما قيل عنه، يمكن القول أن الحلاج كان يتمتع بشخصية «جذرية»[*]، والمقصود بذلك [.. التزام الوجدان بالحدود الفاصلة وعدم تبنيه للحدود الوسطى. فإذا طلب أمراً سعى إليه بكل كيانه وإذا رفض أمراً سعى إليه بكل جوارحه..][7]. وفي ذلك كان يقول: [.. ما تمذهبت لمذهب أحدٍ من الأئمة جملةً، وإنما أخذت من كل مذهب أصعبه وأشده..][8].

وكان إلى ذلك انفعالياً متسماً بالحدة والتهور في طرح آرائه، (إذ أليست الصوفية تجربة وجدانية انفعالية في الأساس؟!) وحدَّته هذه دفعته إلى الخروج عن المألوف في طلب الاتصال [.. فهو لم يطلب حبيبه بتواضع الصوفي وخشوعه.. ولم يتجه نحوه بهدوء وبساطة..بل أراد تحطيم كل الحدود دفعة واحدة، ليتصل بحبيبه في حب عنيف لا يعرف الحلول الوسطى..][9]، أي أن التصوف عنده هو الفعل، والفعل الجامع الذي يلوب باتجاه الوصول نحو المرتجى، وهو [.. الرفض المطلق للنفي.. والحنين الدائم للمركز الذي تتركز حوله جميع الدوائر..][10]. وفي ذلك كان تصّوف الحلاج مؤشراً على قدرة الإنسان على الحلم وعلى التوق الشديد، والعمل المخلص لتأكيد حلمه و[..آية على الرغبة الحارة في الاستعلاء فوق المتحجرات..][11]. على عكس الصوفية المتأخرة، التي لم

---

[*] : سامي خرطبيل، في كتابه أسطورة الحلاج يسميها «جدية» ص ٣٨.

[7] : سامي خرطبيل - أسطورة الحلاج - ط ١ - دار ابن خلدون - ص ٣٨.

[8] أخبار الحلاج: ص ١٩.

[9] خرطبيل - مصدر سابق - ص ٤١.

[10] ابن الفارض شاعر الحب الإلهي - يوسف سامي اليوسف - ط ١ - ص ٩٨.

[11] ابن الفارض - مرجع سابق - ص ٩.

تأخذ من صوفية الحلاج وأمثاله ما فيها من ثورة على الواقع عن طريق الحلم والسعي الدائب لتحقيقه، بل اكتفت بالدروشة والطقوسية وما يعني ذلك من تلاؤم مخز مع الواقع. في رده المسبق على هذا الشكل من التصوف الطقوسي كان الحلاّج يرى أن: [.. من ظنَّ أنه يرضيه (أي الله) بالخدمة فقد جعل لرضاه ثمناً..][١٢]. وهو في هذا كان يؤكد الطريق الذي حددته الصوفية «الفكرية» طريقاً للوصول إلى الله وهو الحب والتوق الشديد والذي هو «فعل» لا «انكفاء»[**]. إذا كان الطريق إلى الحق، هو طريق التوق المشفوع بالحب، فهل لهذا الطريق من نهاية؟!.

بتعبير آخر: هل يمكن الوصول للمحبوب، أو «لمركز الدائرة» أو «لنقطة النون».. علىٰ اختلاف التسميات؟!.

لا يعطينا ظاهر إجابات الحلاج جواباً شافياً، فالحق: [.. واحدٌ، أحدٌ، وحيدٌ، موحَّدٌ][١٣]. كما يقول في طاسين التوحيد، وفي هذا منتهى التنزيه، وبالتالي فإن إمكانية الوصول للمنزَّه تبدو معدومة، خصوصاً أنه لتصل لشيء لابد لك من معرفة هذا الشيء. فما بالك إن كان المقصود هو الحق الذي تبدو معرفته مستحيلة، فالمعرفة [.. طرقها مسدودة، ما إليها سبيل، معانيها مُبينَّة، ما عليها دليل، لا تدركها الحواس «ولا يلحقها» أوصاف الناس..][١٤].

ولكن هل كل طرق المعرفة مسدودة؟ ــ جواب الحلاج هو لا. فالطرق المسدودة هي الطرق العقلية فقط:

من رامه بالعقل مسترشداً	أسرحه في حيرةٍ يلهو
قد شاب بالتلبيس أسراره	يقول من حيرته هل هو[١٥]

---

(١٢) أخبار الحلاج ـ مرجع سابق ـ ص ٦٦.

(**) من المؤسف، أن كثيرين لم يلحظوا هذا الفارق بين الصوفية الفكرية = الفعل وصوفية التكايا والزوايا = الدروشة ـ الطقوسية.

(١٣) الطواسين وبستان المعرفة ـ الحسين بن منصور الحلاج ـ إعداد وتقديم رضوان السح ـ ص ٦٧.

(١٤) الطواسين ـ بستان المعرفة ـ ص ٧٨.

(١٥) أخبار ـ ص ٩٣.

وإذا فتح الحلاج طرقاً أخرى للمعرفة فلا بد أن المقصود هو المعرفة «القلبية» أو «الذوقية» بالتعبير الصوفي وهذه المعرفة تثبت التنزيه وتكرسه، وتنفي عن الحلاج القول بالحلولية أو الاتحادية.

ولكن هل كل ما قاله الحلاج - في ظاهره على الأقل - يؤكد التنزيه وبالتأكيد عدم إمكانية الاتصال؟!. وبالتالي لا!. ففي رسالة لأحد تلامذته يقول: [.. أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الخارج من حدود الأوهام وتصاوير الظنون وتخييل الفكر.. والذي «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».. وأعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل مواقف التوحيد.. فإذا وصل إليها سقطت عن عينه الشريعة واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق..فإذا ترادفت عليه اللوائح، وتتابعت عليه الطوالع، صار التوحيد عنده زندقة، والشريعة عنده هوساً.. فبقي بلا عين ولا أثر.. إن استعمل الشريعة استعملها رسماً، وإن نطق بالتوحيد، نطق به غلبةً وقهراً][16]. ففي هذه الرسالة نلحظ التنزيه الشديد في بدايتها، والاتحاد أو الحلول في نهايتها، آخذين بالاعتبار أن ظاهر نصوص الحلاج يوحي بأنه [.. قد تردد بين الحلول والاتحاد..][17].

كما في قوله:

مزجت روحك في روحي كما	تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسَّك شيء مَسَّني	فإذا أنت أنا في كل حال

وفي هذا يرى حسين مروة أنه سواء [.. كان الحلاج «حلولياً» أم «اتحادياً» فإن التناقض هو التناقض بين كل من الحلول والاتحاد وبين التنزيه الذي يلتزم به الحلاج أيضاً..][18].

ولكن هل ثمة تناقض حقاً؟. في الظاهر: نعم!.

أما من داخل التجربة فإني أعتقد أن تجربة بعمق تجربة الحلاج، لا يمكن النظر إليها دون النظر إلى تجربة الإنسان بإطلاق، أي دون النظر إلى

---

(١٦) أخبار - ص ٧٣.

(١٧) نزعات - مصدر سابق - ص ٢٢٤.

(١٨) نزعات - مصدر سابق - ص ٢٢٤.

الأسئلة الوجودية الكبرى التي طرحها الواقع على الإنسان منذ أن صار إنساناً: تساؤلات عن معنى الحياة وجدواها، تساؤلات عن الحياة والموت تساؤلات عن الآلهة والخلود إلى آخر هذه التساؤلات التي ترتّد من حيث النتيجة إلى مسألة الحياة والموت، وبالتالي إلى مسألة الخلود: خلود الإنسان بطريقة ما..! لم تبق هذه التساؤلات دون إجابات، فقد حاول الإنسان الإجابة عليها، وفقاً لشرطه الاجتماعي - التاريخي، وطبعاً، وفقاً للشرط الشخصي للإنسان المفكر.

كان البحث عن الخلود الشخصي في تجربة «جلجاميش» من أوائل الإجابات (التي وصلتنا) على تحدي الموت ورغم أن إجابة الموت كانت هي الأقوى، إلا أن الإنسانية خلدت ما ترمز إليه شخصية «جلجاميش» من محاولة الإنسان البحث عن إجاباتٍ على الأسئلة الكبرى، هذه الأسئلة التي يعيشها الإنسان المعاصر بقدرٍ لا يقل عما عاشها جلجاميش.

ثم كانت إجابة الأديان الإطلاقية عن خلودٍ «حاصل» بعد الموت بمثابة عزاء للإنسان الذي لا يدرك جدوى حياته ما دام كل شيء إلى فناء.

من ضمن هذه الإجابات العامة، على الأسئلة الكونية العامة، كان المجال ينفسح تبعاً لشرط اجتماعي وتاريخي، ونفسيٍّ محدد لتقديم إجابةٍ خاصة، من قبل شخص خاص مميز، وكانت هذه الإجابة تلقى قبولاً، بقدر ما تتجاوب مع حسٍّ عميقٍ يعيشه كل إنسان دون وعي ووضوحٍ كاملين، إجابةٌ من هذا النوع تهز المتلقي، فيتعاطف معها، ويجلّ صاحبها، بغض النظر عن مدى التطابق في الرؤى بينه وبين صاحب الإجابة - الرؤيا، التي ربما كانت تنفع بالخصوصية والذاتية - ولكن عمقها الإنساني (ربما بسبب خصوصيتها وذاتيتها) يلغي المسافات الزمنية والأيديولوجية، ويدفع للتأمل في فرادة هذه الإجابة (التجربة) والتعاطف معها. بهذا المنظور - وبهذا التعاطف الإنساني - تصبح تجربة الحلاج المتناقضة - ظاهرياً - أقرب إلى الفهم من وجهة نظري، فالحلاج الباحث عن المطلق، الباحث عن الخلود «الله»، على أرضية مجتمعٍ ذي طابع ديني، لن يتسنى له ذلك إلا من خلال الطرق التي يوفرها له هذا المجتمع: طريق الشريعة وبالتالي التنزيه، لكن الحلاج نفسه، بما يمتاز به

من شخصيةٍ متفردةٍ، انفعاليةٍ، جذريةٍ، رافضةٍ لمظالم مجتمعه ولاستبدادية من يحكمونه، هذه الاستبدادية التي تنمو من خلالها شخصيات «الرعية»، لا يريد سلوك طريق الآخرين: طريق التسليم والخنوع للاستبداد (الذي يحرس «الحقيقة» المتمثلة بفهم خاص للشريعة). لا يريد الوصول للمطلق عبر ممرٍّ وحيد إجباري، وبالتالي فإنه يختار طريقه الخاص: «الاتصال». هذا الطريق المتفرد، المتعالي، الجذري، الذي يليق بشخص كالحسين بن منصور الحلاج، ولا يعني هذا إطلاقاً أنه قد اختار هذا الطريق [.. عن رغبةٍ عميقةٍ بالتفرد كهدفٍ عالٍ ونهائي][19].

كما يقول رضوان السح في مقدمته للطواسين. فالقول بالقصدية بالتفرد، يقلل كثيراً من صدق تجربة الحلاج ومن ألقها ذلك أن تفرّد تجربته كمعطى تاريخي تأتت من هذا التناقض بين البحث عن المطلق «الخلود» ومحاولة الاتصال به (وتوهم حدوث الاتصال في لحظةٍ ما، نتيجة لعمق التجربة على المستوى النفسي) وبين التسليم بعدم إمكانية الاتصال أو بعدم ديمومته، وبالتالي خلق لحظة من الانفعال والركض الدامي باتجاه هذا السراب: المطلق، الخلود، المتعالي ــ هذه اللحظة التي تفجّر تلك الاستعانة الإنسانية والتي نحسُّها بشكل ما، على اختلاف المشارب والخلفيات الدينية والإيديولوجية: [.. أيها الناس أغيثوني من الله.. فإنه اختطفني منه، وليس يردني علي، ولا أطيق مراعاة تلك الحضرة ـ وأخاف الهجران فأكون غائباً محروماً..والويل لمن يغيب بعد الحضور، ويهجر بعد الوصل..][20].

هذه هي المسألة إذاً أن تتوصل (أو تتوهم الاتصال لا فرق!) ثم تهجر، أن تعتقد أنك واجدٌ ما تبحث عنه، وإذ لا شيء بين يديك، أن تعتقد أنك وجدت نفسك، وبالتالي وجدت للحياة معنىً، في شيء ما، فكرةٍ ما، أي أن تعتقد أنك خلدت من خلال إضفاء معنىً محددٍ لحياتك، وأن هذا الخلود «المطلق» أصبح «قاب قوسين أو أدنى»، وإذ لا شيء..!.

---

(19) الطواسين ـ المقدمة ـ ص ٢٤.

(20) أخبار ـ ص ٥٩.

عندئذٍ، لابدَّ أنك صائحٌ [أغيثوني!]، وإن كنت الحـلاج علـى أرضيتـه الاجتماعيـة والتاريخيـة وبخلفيتـه الإيديولوجيـة وبنيتـه النفسية، فـإنك ستحدد مضمون الإغاثـة وكيفيتهـا علـى الشكل الـذي يعيـد لـك الاتصال بالمطلق الذي يتناءى عنك كل يوم، وهل يكون هذا إلا بالموت الـذي يكمـل دائرة الاتصال التي تزداد فتحتها كل يوم.. [.. اعلمـوا أن الله تعـالى أبـاح لكم دمي فاقتلوني.. ليس في الدنيا للمسلمين شغل أهـم مـن قتلـي..][21]، ذلك أن هذا القتل، بما يعنيه من إمحاء لشخص الحلاج، هو وحـده الـذي يعيد ما انقطع من اتصال، وبذلك يقول:

بيني وبينك إنّيٌ يزاحمني فارفع بذاتك إنّيٌ من البين

وبمناسبة هذا البيت يلاحظ السهروردي «المقتول أيضـاً» أن الحـلاج قـد أعطى [حق تصرف الأغيار في دمه..][22].

مما سبق نستطيع القول أن تجربة الحلاج لا تقوم علـى الحلـول المطلـق أو الاتحاد المطلق، بل على الشوق الدائـم، والتـوق لتـأبيد لحظـة الاتصـال بالمطلق، وبما أن تأبيد لحظة الاتصـال تلـك، هـو ضـربٌ مـن الوهـم يذكـر بصيحة «فاوست» الشهيرة:

[.. أواه أيتها اللحظة، توقفي!] فإن الحل الأمثل يكون بالموت، وأي موت!.

هل ثمة موتُ أبهى من الشهادة في سبيل المحبوب، المطلق، المرتجـى، عبر طريق «مضرج» بالدم، معبر، قصير؟!. لا أظـن. لذلـك جـاء استشـهاد الحـلاج بالشـكل الـذي تم بـه، ليكمـلَ الأسـطورة إن لم نقـل ليفتتحهـا. أسطورة الإنسان، الإنسان الذي يحلم، الذي يقدم نفسـه فـداءً علـى مذبـح البحث عن الإنسان، وأي إنسان: إنه الإنسان الكامل، إذ أليس [الكمال هـو ماترى فيه الصوفية غايه نهائية، لوجـود الإنسـان علـى الأرض.. ؟!][23].

---

[21] أخبار ـ ص ٧٥.

[22] نقلاً عن هنري كوربان في: «السهروردي المقتول» ـ ضمن «شخصيات قلقة في الإسلام» ـ عبد الرحمن بدوي ط ٣.

[23] مجلة المعرفة ـ ماهية الوعي الصوفي ـ يوسف اليوسف ـ ص ٢٦. العدد ٣٧٣.

نعم! ، ذلك أن بحث الصوفية للاتصال بالحق هو في أحد أوجهه، بحثٌ للاتصال مع الإنسان، الإنسان الفاضل، المنزَّه، النبيل، في مجتمعٍ غلب عليه التفكك، غلب عليه الانفصال!.

من هذه الزاوية، زاوية الرغبة في الاتصال، يمكن تفسير تلك البهجة التي اقتحم الحلاج بها الموت، فها هو ذا.. [يتبختر في قيده ضاحكاً، وينشد:

نديمي غير منسوبٍ	إلى شيء من الحيفِ
دعاني ثم حياني	كفعل الضيفِ بالضيفِ[٢٤]
فلما دارت الكأس	دعا بالنطع والسيفِ
كذا من يشرب الراح	مع التنين في الصيفِ[٢٥]

ثم يناجي ربه قائلاً: [.. هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً وتقرباً إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي، لما فعلوا ما فعلوا. ولو سترت عني ما سترت عنهم، لما ابتليت بما ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد..][٢٦].

هذه الرغبة عزلته (أو زادت في عزله) عن مجتمعه المنفصل، المفكك ـ الفاسد، لذلك يصبح من حق هذا المجتمع أن يقتله دفاعاً عما ألف من معتقدات (ودفاعاً عن ركوده) ـ ويكون من حق الحلاج أن يغفر لهم بقلبه الإنساني «والمتعالي» أيضاً، لكن غفرانه وتسامحه وهو على صليب القتل، لا يمنع هذا الرجل الإنساني النبيل من أن يطرق قلبه، هذا الوجل الذي حرك قبله لسان يسوع المسيح وهو على صليبه بكلمات هي: [.. إيلي، إيلي لما شَبَقْتَني، أي إلهي إلهي لماذا تركتني..][٢٧].

---

[٢٤] الأبيات لمطيع بن اياس وأنشدها الحلاج متمثلاً. ورواية البيت الأصلية:

سقاني مثلما يشرب فعل الحر بالضيف

[٢٥] أخبار ـ ص ٣٤.

[٢٦] أخبار ـ ص ٧٠.

[٢٧] العهد الجديد ـ إنجيل متى ـ أصحاح ٢٧ آية ٤٦.

فإذا به يصيح عن صليبه أيضاً: [.. إلهي إنك تتودد إلى من يؤذيك، فكيف لا تتودد إلى من يُؤذى فيك..][28].

لكن الحلاج المقتنع بعدالة قضيته، والطامح للاتصال يعود بعد ثلاثة أيام من الصلب، وبعد أن قطعت يداه، ورجلاه، وقبل أن تضرب عنقه، يعود ليصيح بكل العنفوان، والجرأة:

[.. حسب الواحد إفراد الواحد له..!][29]. مفتتحاً بتلك النهاية المأساوية، أسطورةً ما تزال تعيش بيننا حتى الآن.

بهذا الفهم، يغدو من الخطل، والضيق القول أن [.. تغذية أسطورة الحلاج لا يقصد به مجرد بحث عقلي، بل يقصد به تضخيم صورة لتكون نموذجاً ـ بحثاً عن الحلول الوهمية (كذا !)...][30]. فالحلاج كما صوره الذهن الشعبي كان نموذجاً للفعل ـ الفعل المضاد للفكر المتحجر السائد لا تكريساً للحلول الوهمية. وما اضطهاد الصوفية المفكرة تلك الأيام إلاَّ لكونها كانت، ما كانت عليه من رفض للسائد وهذا ما لاحظه المفكر الكبير حسين مروة من أن أسباب الاضطهاد الذي تعرضت له الصوفية [.. ليست دينية في جوهرها بل هي ترجع في الأساس إلى المضمون الإيديولوجي الذي احتوته الصوفية كحركة فكرية..][31]. لذلك ارتأت فيه الصوفية المفكرة شهيداً كبيراً لها يجب صونها كون [.. استشهاد الحلاج درة من الجمال المحرم يجب إخفاؤها وليس زاد خلود يوزع على الجميع..][32]. كما يقول تلميذه وصديقه الشبلي.

واستشهاده ـــ فوق هذا ـــ علامة إنسانية كبرى على طريق الدفاع الشجاع عن إنسانية الإنسان وحقه في التوق والحلم، حقه في الذود عن

---

(28) أخبار ـ ص ٤٢.

(29) أخبار ـ ص ٣٦.

(30) خرطبيل ـ أسطورة الحلاج ـ ص ١٨٢.

(31) نزعات مادية ـ مصدر سابق ـ ص ٣٠٦.

(32) نقلاً عن: لويس ماسينيون: في المنحى الشخصي لحياة الحلاج ضمن «شخصيات قلقة في الإسلام» ص ١٣١.

اعتقاده حتى آخر صلب، وإدانـة كـبرى لضيـق الأفـق والهمجيـة والتفاهـة التي تدعي احتكار الحقيقة في كـل زمـان ومكـان، وتـأكيد علـى أن طريـق الكفاح الإنساني جدٌ طويل، وهذا ما لاحظه الحلاج على صليبه:

[.. وبقي (الحلاج) مصلوباً ذاك اليوم بأكمله فأتى الشبلي وسأله:

ـ ما التصوف؟

فقال: ـ أهون مرقاة منه ما ترى!..][٣٣].

أخيراً...إن ما يدفع على العزاء هو أن أسطورة الحلاج، بما هـو إنسـان أولاً وقبل أي اعتبار ـ خالدة، وأنه كما يقول فيه حافظ الشيرازي:

[.. لن يموت أبداً من يعيش قلبه من العشق..!][٣٤].

فائق حويجة

---

[٣٣] أخبار الحلاج ـ ص ٣٦.

[٣٤] ماسينيون ـ مصدر سابق ـ ص ١٤٢.

مقدمة المحقق

لا شك أن هذا الكتاب الذي يحمل عنوان: [كتاب أخبار الحلاّج] لمؤلفّه علي بن أنجب الساعي البغدادي يُعدّ من الكتب القيمة في علم الأخبار خصوصاً وأن الحلاج من أعلام الصوفية الكبار، الذي وضع لنفسه مبدأ وسار عليه، وأثرى الفكر العربي بالآراء والأفكار المستجلبة من كينونات عقله وفلسفته الفكرية، التي أصبحت مناراً يحتذى به في العلوم الفكرية، وأضاف لبنة جديدة إلى صرح الثقافة العربية، ولهذا انكب الدارسون والباحثون ينهلون منه فهماً وشرحاً وعلماً.

المخطوطة المعتمدة في التحقيق:

كنت مدرّساً للأدب العربي في الجمهورية اليمنية، وذات يوم زرت صديقاً يمنياً لي في بيته، فقفز نظري إلى مكتبته المتواضعة، واستمحته عذراً، أن أطلّع عليها، فما أن قمت إليها حتى وقع بصري على مخطوطة نادرة وهي كتابنا هذا، وندرتها تأتي من أن أخبار الحسين بن منصور الحلاج قد ضاع أكثرها، ولم يبق منها إلا نتف مبثوثة في بطون أمات الكتب العربية من جهة، ولكون هذه المخطوطة أصل عن جميع المخطوطات التي توجد في رفوف المكتبات العالمية وأقدمها من جهة ثانية، طلبت من صديقي أن أقوم بتصويرها، عند ذلك لم يدخر جهداً، فعمل على تصويرها، وبعث لي نسخة عن أصل الكتاب القيّم.

تقع هذه المخطوطة في تسع وأربعين ورقة، عدد الأسطر في كل ورقة ثلاثة عشرة سطراً، ومتوسط عدد الكلمات في السطر الواحد ثماني كلمات،

وكُتبت بخط مقروء إلا بعض الأماكن التي انتابتها رطوبة، فمُحـي الحـبر، واختلط عليّ بعض كلماتها، عند ذلك رجعت إلى المصـادر التاريخيـة الـتي كتبت عنه علّني أجد ضالتي فيها.

توثيق الكتاب:

لقد عـزت أغلـب المصـادر القديمـة هـذا الكتـاب إلى علـي بـن أنجـب الساعي البغدادي المتوفى سنة أربع وسبعين وستمائة للهجـرة، وممـا يؤيـد كلامنا:

ما ذكره حـاجي خليفـة في كتابـه: [كشـف الظنـون: ١/١٩٥]، مـن أن [كتاب أخبار الحلاج] لابن أنجب الساعي البغدادي.

منهج التحقيق:

قمت في البداية على إخراج نص مضبوط، واتبعت ما يلي:

١ ـ تقويم النص وضبطه.

٢ ـ تبيان مواطن السقطات والتحريفات.

٣ ـ تصحيح بعض الفِكر في النص.

٤ ـ تعقب الأخطاء التي وقع فيها الناسخ.

٥ ـ التعليق على النص، وعزو الأقوال والروايات إلى أصحابها.

٦ ـ شرح ما استعجم فهمه، واستوحش معناه.

وله الحمد على كل حال.

دمشق

٢٥ رجب ١٤١٦هـ

١٧ ديسمبر ١٩٩٥م

موفق فوزي الجبر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابن أنجب الساعي:

اللهم إنك أنت، ولك الحمد دائماً أبداً، والصلاة على رسولك.

وبعد:

عن إبراهيم بن فاتك[1]. قال:

لّما أُتي بالحسين بن منصور، ليصلب[2]. رأى الخشبة والمسامير، فضحك كثيراً حتى دمعت عيناه، ثم التفت إلى القوم، فرأى الشبلي[3]. فيما بينهم فقال له:

يا أبا بكر، هل معك سجادتك؟ فقال: بلى ياشيخ. قال:

افرشها لي. ففرشها، فصلّى الحسين بن منصور عليها ركعتين، وكنت قريباً منه، فقرأ في الأولى فاتحة الكتاب، وقوله تعالى:

﴿لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع﴾ [4]. الآية.

وقرأ في الثانية فاتحة الكتاب، وقوله تعالى:

﴿كُلُّ نفسٍ ذائقة الموت﴾ [5]. الآية.

---

(١) وردت في الأصل «ماتك».

(٢) وردت في الأصل «ليطلب».

(٣) هو أبو بكر الشبلي، صوفي كبير، مفكر عربي عظيم، أغنى المكتبة العربية بآرائه الفكرية القيمة، عاش في عصر الحسين بن منصور الحلاج، وكان من الذين شهدوا قتل الحلاج.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥٥

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥

فلمّا سلّم عنها، ذكر [أشياء][٦]. لم أحفظها، وكان مما حفظته:

اللهم إنك المتجلي عن كلّ جهة، والمتخلي من كلّ [جهة][٧]. بحق قيامك بحقي، وبحق قيامي بحقك وقيامي بحقك يخالف قيامك بحقي.

فإن قيامي بحقك ناسوتيّة، وقيامك بحقي لاهوتية، وكما أن ناسوتيتي مستهلكة في لاهوتيتك غير ممازجة إياها، فلاهوتيتك مستولية على ناسوتيتي غير مماسة لها.

وبحق قِدَمك على حدثي، وحق حدثي تحت ملابس قدمك، أن ترزقني شكر[٨] هذه النعمة التي أنعمت بها عليّ حيث غيّبت أغياري عمّا كشفت لي من مطالع وجهك، وحرمت على غيري ما أبحت لي من النظر في مكنونات سرّك، وهؤلاء عبادك[٩] قد اجتمعوا [لقتلي][١٠] تعصباً لدينك، وتقرُّباً إليك. فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا[١١]. ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتُليت بما ابتليت.

فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد.

ثم سكت، وناجى سرّاً.

فتقدم أبو الحارث السياف، فلطمه لطمةً، هشم[١٢] أنفه، وسال الدم على شيبه، فصاح الشبلي، ومزّق ثوبه، وغشي على أبي الحسين الواسطي، وعلى جماعة من الفقراء المشهورين، وكادت الفتنة تهيج، ففعل أصحاب الحرس ما فعلوا[١٣].

---

(٦) ساقطة من الأصل.

(٧) ساقطة من الأصل.

(٨) وردت في الأصل «سكر»

(٩) وردت في الأصل «عبارك»

(١٠) ساقطة في الأصل

(١١) في الأصل «ما فعل» وهو تصحيف.

(١٢) هشم: قطع.

(١٣) وردت هذه المناجاة في كتاب: [الفواتح السبع:٧٥] للقاضي الحسين بن معين الدين الميبذي، باختلاف يسير، كقوله: «ناسوتيتي استهلكت في لا هوتيتك، فبحق ناسوتيتي على لا هوتيتك أن تغفر لمن ابتغى قتلي». كما ذكرها نجم الدين الرازي في كتاب [مرصاد العباد: ٦٦]. مشيراً إلى مناجاة الحلاّج: «إلهي افنيت ناسوتيتي في لاهوتيتك .فبحق ناسوتيتي على لا هوتيتك أن ترحم على من سعى بقتلي».

ذكر عن قاضي القضاة أبي بكر بن الحدّاد المصري، قال:

لّما كانت الليلة التي قُتل في صبيحتها الحلاّج قام، واستقبل القبلة متوشحاً بردائه، ورفع يديه، وتكلّم بكلام كثير جاوز الحفظ.

فكان مما حفظته منه أن قال:

نحن بشواهدك نلوذ، وبسنا عزتك نستضيء، لتبدي ما شئت من شأنك، وأنت الذي في السماء عرشك، وأنت الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، تتجلى كما تشاء مثل تجلّيك في مشيئتك كأحسن صورة. والصورة فيها الروح الناطقة بالعلم والبيان والقدرة والبرهان، ثم أوعزت إلى شاهدك الأنَيّ في ذاتك الهُوَيّ. كيف أنت إذا مُثّلت بذاتي، عند عقيب كرّاتي، ودعوت إلى ذاتي بذاتي، وأبديت حقائق علومي ومعجزاتي، صاعداً في معارجي إلى عروش أزلياتي عند القول من برّياتي.

إني أُخذت وحُبست وأُحضرت وصُلبت وقُتلت وأُحرقت واحتملت السافيات الذاريات أجزائي.

ثم أنشأ يقول:

أنعى إليك نفوساً طاح شاهدُها	فيما ورا الحيثِ بل في شاهدِ القِدَم
أنعى إليك قلوباً طالما هطلت	سحائبُ الوحى فيها أبحُرَ الحِكَم
أنعى إليك لسانَ الحقِّ مذ زَمن	أودى وتذكارُه في الوهم كالعدم
أنعى إليك بياناً تستكين له	أقوالُ كلّ فصيح مقَول فَهِم
أنعى إليك إشاراتِ العقول معاً	لم يبقَ منهن إلاّ دارسُ الرقم
أنعى وحُبّك أخلاقاً لطِائفةٍ	كانت مطاياهم من مُكمد الكَظَم
مضى الجميعُ فلا عينٌ ولا أثرٌ	مُضيّ عادٍ وفقدانَ الأُلى إرَم
وخلّفوا معشراً يحذون لُبسَهمُ	أعمى من البهم بل أعمى من النَعَم

وقال إبراهيم بن فاتك:

دخلت يوماً على الحلاج في بيت له على غفلـةٍ منـه، فرأيتـه قائمـاً[١٤] على هامة رأسه وهو يقول:

يامن لازمني في خلدي قرباً، وبـاعدني بعُـد القِـدَم مـن الحـدث غيبـاً، تتجلى عليَّ حتى ظننتك الكل، وتسلب عني حتى أشهد بنفيك. فلا بُعـدك يبقى، ولا قربك ينفع، ولا حربك يغني، ولا سلمك يؤمَن. فلمّا أحـسّ بـي قعد مستوياً، وقال:

أدخـل و لا عليـك، فدخلـت، وجلسـت بـين يديـه، فـإذا عينـاه كشعلتي[١٥] نار، ثم قال:

يا بني إنَّ بعض النـاس يشـهدون علـيّ بـالكفر، وبعضهـم يشـهدون لي بالولاية، والذين يشهدون عليّ بالكفر أحـب إليّ وإلى الله مـن الذيـن يقـرّون لي بالولاية.

فقلت: ياشيخ ولِمَ ذلك؟

فقال: لأن الذين يشـهدون لي بالولايـة مـن حسـن ظنهـم بـي، والذيـن يشهدون عليّ بالكفر تعصباً لدينهم. ومن تعصب لدينـه أحـب إلى الله ممّـن أحسن الظن بأحد.

ثم قال لي:

وكيـف أنـت يـا إبراهيـم حـين ترانـي وقـد صُلبـت وقـد [قُتلـت][١٦] وأُحرقت، وذلك أسعد يوم من أيام عمري جميعهً.

ثم قال لي:

لا تجلس، واخرج في أمان الله.

وعن الشيخ إبراهيم بن عمران النيلي أنه قال:

سمعت الحلاّج يقول:

---

[١٤] وردت في الأصل«قائم».

[١٥] وردت في الأصل«كشعلة».

[١٦] ساقطة في الأصل.

النقطة أصل كل خط، والخط كله نُقط مجتمعة، فلا غِنى عن النقطة للخط، ولا للنقطة عن الخط. وكل خط مستقيم أو منحرف، فهو متحرك عن النقطة بعينها. وكل ما يقع عليه بصر أحد فهو نقطة بين نقطتين. وهذا دليل على تجلي الحق في كلّ ما يشاهَد، وترائيه عن كل ما يعاين، ومن هذا قلت:

«ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه»[١٧].

وعن ابن الحداد المصري قال:

خرجت في ليلة مقمرة إلى قبر أحمد بن حنبل[١٨]. ـ رحمه الله ـ فرأيت هناك من بعيد رجلاً قائماً مستقبلاً القبلة. فدنوت منه من غير أن يعلم، فإذا هو الحسين بن منصور، وهو يبكي، ويقول:

يامن أسكرني بحبه، وحيرني في ميادين قربه، أنت المفرد بالقِدَم، والمتوحد بالقيام على مقعد الصدق، قيامك بالعدل لا بالاعتدال، وبعدك بالعزل لا بالاعتزال، وحضورك بالعلم لا بالانتقال، وغيبتك بالاحتجاب لا بالارتحال.

فلا شيء فوقك فيظلّك، ولا شيء تحتك فيقلّك، ولا أمامك شيء فيجدك، ولا وراءك شيء فيدركك. أسألك بحرمة هذه التُرب المقبولة والمراتب المسؤولة، أن لا تردني إلى بعد ما اختطفتني مني، ولا تُريني نفسي بعد ما حجبتها عني، وأكثر أعدائي في بلادك، والقائمين لقتلي من عبادك.

فلمّا أحسّ بي، التفت، وضحك في وجهي، ورجع، وقال لي:

يا أبا الحسن، هذا الذي أنا فيه أول مقام المريدين.

فقلت تعجباً: ما تقول ياشيخ؟ إن كان هذا أول مقام المريدين، فما مقام من هو فوق ذلك؟

---

[١٧] فهذه الكلمة أصبحت مثلاً، ذكرها عز الدين المقدسي في كتاب[شرح حال الأولياء:٣٥٥]: كما وذكرها الخركوشي في كتابه:[كتاب تهذيب الأسرار:٢١١]. وذكرها الهجويري في كتابه:[كشف المحجوب:١١٢].

[١٨] أحمد بن حنبل: إمام المذهب الحنبلي، محدّث ثقة، له كتاب المسند.

قال:

كذبت هو أول مقام المسلمين، لا بل كذبت هو أول مقام الكافرين.

ثم زعق ثلاث زعقات، وسقط وسال الدم من حلقه. وأشار إليّ بكفه أن أذهب، فذهبت، وتركته.

فلما أصبحت رأيته في جامع المنصور، فأخذ بيدي، ومال بي إلى زاوية، وقال:

با لله عليك، لا تُعلم أحداً بما رأيت مني البارحة.

وعن أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الكريم الحلواني قال:

خدمتُ الحلاّج عشر سنين، وكنت من أقرب الناس إليه، ومن كثرة ما سمعت الناس يقعون فيه، ويقولون: إنه زنديق، توهمت في نفسي، فاختبرته.

فقلت له يوماً: ياشيخ، أريد أن أعلم شيئاً من مذهب الباطن.

فقال: باطن الباطل، أو باطن الحق؟.

فبقيت متفكراً!.

فقال: أما باطن الحقّ فظاهره الشريعة، ومن يحقق في ظاهر الشريعة ينكشف له باطنها، وباطنها المعرفة با لله. وأما باطن الباطل، فباطنه أقبح من ظاهره. وظاهره أشنع من باطنه، فلا تشتغل به.

يا بني أذكر لك شيئاً من تحقيقي في ظاهر الشريعة. ما تمذهبت بمذهب أحد من الأئمة جملة، وإنما أخذت من كل مذهب أصعبه، وأشدّه، وأنا الآن على ذلك. وما صلّيت صلاة الفرض قطّ إلا وقد اغتسلت أولاً ثم توضأت لها. وها أنا ابن سبعين سنة، وفي خمسين سنة صلاة ألفي سنة، كلّ صلاة قضاء لما قبلها[١٩].

وقال إبراهيم الحلواني:

دخلت على الحلاج بين المغرب والعشاء، فوجدته يصلّي. فجلست في زاوية البيت كأنه لم يحس بي لاشتغاله بالصلاة، فقرأ سورة البقرة في

---

[١٩] ورد هذا الخبر في كتاب: [الكواكب الدرية، لعبد الرؤوف المناوي: ١٢٥].

الركعة الأولى، وفي الركعة الثانية آل عمران. فلّما سلّم سجد، وتكلّم بأشياء لم أسمع بمثلها. فلما خاض في الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذ عن نفسه، ثم قال:

يا إله الآلهة، ويارب الأرباب، ويا من ﴿لاتأخذه سِنةٌ ولا نومٌ﴾[20]. رُدّ إليّ نفسي لئلا يفتتن بي عبادك، يا هو أنا، وأنا هو، لا فرق بين انيتيّ وهويتك إلا الحدث والقِدَم.

ثم رفع رأسه، ونظر إلي وضحك في وجهي ضحكات، ثم قال:

يا أبا إسحاق، أما ترى أن ربيّ ضرب قِدمَه في حدثي، حتى استهلكت حدثي في قِدمَه، فلم يبق لي صفة إلا صفة القديم، ونطقي في تلك الصفة. والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدث. ثم إذا نطقت عن القِدم ينكرون عليّ، ويشهدون بكفري، ويسعون إلى قتلي، وهم بذلك معذورون، وبكل ما يفعلون بي مأجورون.

[وقال][21] الحلواني:

كنت مع الحلاّج وثلاثة نفر من تلاميذه، وواسطت قافلتي من واسط إلى بغداد. وكان الحلاّج يتكلم، فجرى في كلامه، حديث الحلاوة، فقلنا:

على الشيخ الحلاوة!.

فرفع رأسه[22]. وقال:

يا من لم تصل إليه الضمائر، ولم تمسّه شُبه الخواطر والظنون، وهو المترائي عن كل هيكل وصورة من غير مماسّة ومزاج، وأنت المتجلي عن كل أحد، والمتجلي بالأزل والأبد، لا توجد إلا عند اليأس، ولا تظهر إلا حال الإلتباس، إن كان لقربي عندك قيمة، ولا عراضي لديك عن الخلق مزية، فائتنا بحلاوة يرتضيها أصحابي.

ثم مال عن الطريق مقدار ميل، فرأينا هناك قطعاً من الحلاوة المتلونة، فأكلنا، ولم يأكل منه، فلما استوفينا ورجعنا خطر ببالي سوء ظن بحاله،

---

[20] وردت في الأصل «يومٌ».

[21] ساقطة من الأصل.

[22] وردت في الأصل«رسه».

وكنت لا أقطع النظر عن ذلك المكـان، وحافظتـه أحـوط مـا يحـافظ مثلـه، ثـم عدلـت عـن الطريـق للطهـارة، وهـم ذاهبـون، ورجعـت إلى المكـان، فلـم أر شـيئاً، فصلّيـت ركعتـين وقلـت: اللهـم خلصـني مـن هـذه التهمـة الدنيّة.

فهتف لي هاتف: يا هذا أكلتم الحلاوة على جبل قاف، وتطلب القِطَـع هاهنا، أحسن همّك، فما هذا إلاّ ملك الدنيا والآخرة.

وعن علي بن مردويه قال:

سمعت الحسين بن منصور قد سلّم عن الصلاة فقال:

اللهم، أنت الواحـد الـذي لا يقـوم بـه عـدد نـاقص، والأحـد الـذي لا تدركه فطنـة غـائص، وأنـت في السـماء إلـه وفي الأرض إلـه، اسـألك بنـور وجهك الذي أضاءت بـه قلـوب العـارفين، وأظلمـت منـه أرواح المتمرديـن. واسألك بقدسك الذي تخصصت به عن غيرك، وتفردت به عمـن سـواك أن لا تسرحني في ميادين الحيرة، وتنجيني من غمرات التفكر، وتوحشني عن العالم، وتؤنسني بمناجاتك، يا أرحم الراحمين.

ثم سكت ساعةً، وترنم، ورفع صوته في ذلك الترنم، وقال:

يا من استهلك المحبون فيـه، واغـتر الظـالمون بأياديـه، لا يبلـغ كنـه ذاتك أوهام العباد، ولا يصل إلى غاية معرفتك أهل البلاد، فـلا فـرق بيـني وبينك إلا الإلهية والربوبية.

وكانت عيناه في خلال الكلام تقطر دماً. فلمّا التفت إليّ ضحك، فقال:

يا أبا الحسن، خذ من كلامي ما يبلغ إليه علمـك، ومـا أنكـره علمـك، فاضرب بوجهي، ولا تتعلّق به، فتضلَّ عن الطريق.

وعن أبي الحسن علي بن أحمد بن مردويه[٢٣]. قال:

رأيـت الحـلاج في سـوق القطيعـة ببغـداد باكيـاً يصيـح: أيهـا النـاس أغيثوني من الله، ثلاث مرات فإنه اختطفني مني وليس يردنـي علـيّ، ولا

---

[٢٣] وردت في الأصل «مردون».

أطيق مراعاة تلك الحضرة، وأخاف الهجران[٢٤]. فأكون غائباً محروماً. والويل لمن يغيب بعد الحضور، ويهجر بعد الوصل.

فبكى الناس لبكائه، حتى بلغ مسجد عتّاب، فوقف على بابه، وأخذ في كلام فهم الناس بعضه، وأشكل عليهم بعضه. فكان مما فهمه الناس أنه قال:

أيها الناس، إنه يحدّث الخلق تلطفاً فيتجلى لهم، ثم يستتر عنهم تربية لهم، فلولا تجليه لكفروا جملةً، ولولا ستره لفتنوا جميعاً، فلا يديم عليهم إحدى الحالتين، لكني ليس يستتر عني لحظة فأستريح حتى استهلكت ناسوتيتي في لا هوتيته، وتلاشى جسمي في أنوار ذاته، فلا عين لي ولا أثر[٢٥]. ولا وجه ولا خبر.

وكان مما أشكل على الناس معناه أنه قال:

اعلموا أن الهياكل قائمة بياهُوه، والأجسام متحركة بياسينه، والهو والسين طريقان إلى معرفة النقطة الأصلية، ثم أنشأ يقول:

عقدُ النبوّةِ مصباحٌ من النور	مُعَلَّقُ الوحي في مشكاة تأمور
باللهِ يَنْفخُ نفخُ الرُّوح في خَلَدي	لِخَاطري نَفْخَ إسْرافيلَ في الصور
إذا تجلّى بطوري أن يُكلّمني	رأيتُ في غيبتي موسى على الطُور

وقال عبد الكريم بن عبد الواحد الزعفراني:

دخلت على الحلاّج، وهو في مسجد، وحوله جماعة، وهو يتكلم، فأول ما اتصل بي من كلامه أنه قال:

لو ألقي مما في قلبي ذرة على جبال الأرض لذابت، وإني لو كنت يوم القيامة في النار لأحرقت النار، ولو دخلت الجنة لا نهدم بنيانها، ثم أنشأ يقول:

---

[٢٤] وردت في الأصل «البحران».

[٢٥] وردت في الأصل «أسر».

عجبتُ لكلّي كيف يحملـهُ بعضـى ومن ثقل بعضـى ليـس تحملـنى أرضـى

لئن كان في بسطٍ من الأرض مضجعٌ فقلبى على بسطٍ من الخلق في قبـض[٢٦]

وقال أحمد بن أبي الفتح بن عاصم البيضاوي:

سمعت الحلاّج يملي على بعض تلامذتـه، إن الله تبـارك وتعـالى، ولـه الحمد ذات واحد، قائم بنفسه، منفرد عن غيره بقدمه، متوحد عمّن سـواه بربوبيته. لا يمازجه شيء، ولا يخالطه غير، ولا يحويه مكان، ولا يدركـه زمان، ولا تقدّره فكرة، ولا تصـوّره خطـرة، ولا تدركـه نظـرة، ولا تعتريـه فترة، ثم طاب وقته، وأنشأ يقول:

جنونى لـك تقديـسٌ وظنّـى فيـك تهويـسُ[٢٧]

وقـد حـيرّنى حـبٌّ وطـرفٌ فيـه تقويـسُ

وقد دلّ دليـلُ الحُـ ـبّ أنّ القـربَ تلبيـسُ

ثم قال: ياولدي، صن قلبك عن فكره، ولسانك عن ذكره، واستعملهما بإدامة شكره، فإن الفكرة في ذاته، والخطـرة في صفاتـه، والنطـق في إثباتـه من الذنب العظيم والتكبير الكبير.

وعن أبي نصر، أحمد بن سعيد الأسبينجاني يقول[٢٨]:

---

(٢٦) وردت هـذه المناجـاة في كتـاب: [حـل الرمـوز: ٣٠] لعـز الديـن المقدسـي. دون أن يذكـر الأبيات. كما وذكرها نفس المؤلف في كتاب: [شرح حال الأولياء: ٢٥٢] وزاد قـائلاً. «وقـد ذكر أن الخضر عليه السلام عبر على الحلاج وهو مصلوب، فقـال لـه الحـلاج: هـذا جـزاء أوليـاء الله، فقال له الخضر: نحن كتمنا فسلمنا، وأنت بحت فمت ياحلاج، كيف أصبحـت؟ قـال: أصبحـت لو طارت مني شراره لا حرقت مالكاً وناره».

(٢٧) وقد ذُكرت هذه الأبيات: [الطواسين: الفصل السادس] باختلاف يسير:

جحـودي فيـك تقديـس وعقلـي فيـك تهويـس

ومـــــــا آدم إلاّك ومـن في البـين إبليـس

(٢٨) ذكرها أبو القاسم عبد الكريم بـن هـوزان القشـيري في كتـاب: [الرسـالة القشـيرية في علـم التصوف]. وقال محيي الدين بن عربي في: [الفتوحـات المكيـة: ٢١٤/٤] «وقـد فعـل مثـل هـذا القشيري في رسالته، حيث ذكر أولئك الرجال في أول رسالته، وما ذكر فيهـم الحـلاج للخـلاف الذي وقع فيه حتى لا تتطرق التهمة عن وقع ذكره من الرجال في رسالته، ثم أنه ساق عقيدته في التوحيد، في صدر الرسالة، يزيل بذلك ما في نفس الناس منه من سوء الطوية».

سمعت الحلاّج يقول:

ألزمُ الكل الحدث لأن القدم له، فالذي بالجسم ظهوره، فالعرض يلزمه، والذي بالإرادة اجتماعه فقواها تمسكه، والذي يحدث يؤلفه وقت ويفرّقه وقت، والذي يقيمه غيره، فالضرورة تمسه، والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي إليه، ومن آواه محل أدركه أين، ومن كان له جنس طالبه كيف، إنه تعالى لا يظلّه فوق، ولا يقلّه تحت، ولا يقابله حدّ، ولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خلف، ولا يحدّه أمام، ولا يظهره قبل، ولا يفتيه بعد، ولا يجمعه كلّ، ولا يوجده كان، ولا يفقده ليس، وصفه لا فقه له، وفعله لا علة له، وكونه لا أمد له، تنزه عن أحوال خلقه، ليس له من خلقه مزاج، ولا في فعله علاج، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم. إن قلت: متى فقد سبق الوقت كونه، وإن قلت: هو، فالهاء والواو خلقه، وإن قلت: أين فقد تقدّم المكان وجوده، فالحروف آياته، ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تصوّر في الأوهام فهو بخلافه. كيف يحل به ما منه بدأ، أو يعود إليه ما هو أنشأه. لا تماثله العيون ولا تقابله الظنون.

قربه كرامته، وبعده إهانته، علّوه من غير توقل، ومجيئه من تنقل ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾[٢٩]. القريب البعيد ﴿ليس كمثله شيء وهو السميعُ البصير﴾[٣٠].

عن يونس بن الخضر الحلواني، قال:

سمعت الحلاّج يقول:

دعوى العلم جهلٌ توالي الخدمة سقوط الحرمة، الاحتراز من حربهِ جنون، الاغترار بصلحه حماقة، النطق في صفاته هَوَسَ. السكوت عن إثباته خرس. طلب القرب منه جسارة، والرضى ببعده من دناءة الهمة.

عن موسى بن أبي ذرّ البيضاوي قال:

---

[٢٩] سورة الحديد، الآية: ٣.

[٣٠] سورة الشورى، الآية: ١١.

كنت أمشي خلف الحلاّج في سكك البيضاء،فوقع ظلّ شخص من بعض السطوح عليه، فرفع الحلاج رأسه، فوقع بصره على امرأة حسناء فالتفت إليّ وقال:

سترى وبال هذا عليّ، ولو بعد حين.

فلما كان يوم صلبه كنت بين القوم أبكي، فوقع بصره عليّ من رأس الخشبة فقال:

يا موسى. من رفع رأسه كما رأيت، وأشرف إلى ما لايحلّ له أشرف على الخلق هكذا، وأشار إلى الخشبة.

وعن أبي الحسن الحلواني قال:

حضرت الحلاّج يوم وقعته، فأُتي به مسلسلاً مقيّداً، وهو يتبختر في قيده، وهو يضحك، ويقول:

نديمي غير منسوبٍ إلى شيء من الحيفِ
دعاني ثم حيّاني كفعل الضيف بالضيفِ[٣١]
فلما دارتِ الكأسُ دعا بالنطع والسيفِ
كذا من يشربُ الراحَ مع التنين في الصيفِ[٣٢]

وعن أبي بكر الشبلي قال:

قصدت الحلاّج، وقد قُطعت يداه ورجلاه وصلب على جذع فقلت له:

ما التصوف؟ فقال:

أهون مرقاة منه ما ترى.

فقلت له: ما أعلاه؟

---

[٣١] انظر الصفحة (٥٧).

[٣٢] وردت هذه الأبيات في: ـ تاريخ الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي: ٢٥. ـ قاموس الاصطلاحات، لماسينون: ٥٩. ـ بداية حال الحلاج ونهايته، لابن باكويه: ٣٥. ـ لطائف الإشارات، لأبي القاسم عبد الكريم القشيري: ٧٥. ـ محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني: ٣٣٥/١. ـ تذكرة الأولياء، العطار: ١٤٥/٢.

فقال: ليس لك إليه سبيل، ولكن سترى غداً، فإنّ في الغيب ما شهدته، وغاب عنك، فلما كان وقت العشاء، جاء الأذن من الخليفة أن تضرب رقبته.

فقال الحرس: قد أمسينا، نؤخر إلى الغد.

فلما كان من الغد أُنزل من الجذع، وقدّم لتُضرب عنقه.

فقال بأعلى صوته:

حسب الواحد إفراد الواحد له، ثم قرأ: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾(٣٣). الآية.

وقيل: هذا آخر شيء سُمع منه.

ثم ضربت عنقه، ولفّ في بارية، وصُبّ عليه النفط، وأحُرق، وحُمل رماده على رأس منارة لتنسفه الريح(٣٤)

قال أحمد بن فاتك:

لما قُطعت يدا الحلاّج ورجلاه قال:

إلهي أصبحت في دار الرغائب، انظر إلى العجائب، إلهي إنك تتودد إلى من يؤذيك، فكيف لا تتودد إلى من يؤذى فيك.

عن أبي يعقوب النهرجوري قال:

دخل الحلاّج مكة أول دخلة، وجلس في صحن المسجد سنةً لم يبرح من موضعه إلا للطهارة. والطواف، ولم يحترز من الشمس ولا من المطر.

---

(٣٣) سورة الشورى، الآية: ١٨.

(٣٤) جاء في كتاب: [مناقب الأبرار، لابن خميس الكعبي: ٨١]. «أنه لما سئل عن التصوف، نظر إليه شزراً، وقال: ابتداؤه ما ترى، وانتهاؤه ما ترى غداً» والسائل ليس الشبلي إنما بندار ابن الحسين صاحب الشبلي. وفي رواية آخرى: «فقال الشبلي: ما التصوف؟ فقال له: ظاهره ما ترى، وباطنه دق عن الورى». وكذلك جاء في كتاب [تهذيب الأسرار، لأبي سعيد الخركوشي: ٧] «وسئل عن التصوف وهو مصلوب، فقال: هو كما ترى». وفي رواية: «أهونه ما ترى». وقال سبط ابن الجوزي في [مرآة الزمان: ٧٥] «سئل الحسين بن منصور عن التصوف، وهو مصلوب...».

وكان يحُمل إليه في كل عشية كوز ماء وقرص من أقراص مكة، وكـان عنـد الصباح يُرى القـرص علـى رأس الكـوز، وقـد عـضّ منـه ثـلاث عضّـات أو أربعاً، فيحمل من عنده[٣٥].

وعن أحمد بن كوكب بن عمر الواسطي قال:

صحبت الحـلاج سـبع سـنين، فمـا رأيتـه ذاق مـن الأدام سـوى الملـح والخلّ، ولم يكن عليه غير مرّقعة واحدة، وكان على رأسـه برنـس، وكلمـا فُتح عليه بإزار قبله، وآثر به.

ولم ينم الليل أصلاً إلاّ سويعةً من النهار.

عن خوراوزاد بن فيروز البيضاوي، وكان من أخص الجـيران، وأقربهـم إلى الحلاّج أنه قال:

كان الحلاّج ينوي في أول رمضان، ويفطر يوم العيد، وكان يختم القـرآن كل ليلة في ركعتين، وكل يوم في مائتي ركعة.

وكان يلبس السواد يوم العيد، ويقول:

هذا لباس من يُردّ عليه عمله[٣٦].

وقال أحمد بن فاتك، قال الحلاّج:

---

[٣٥] ورد ذكر هذه القصة في: كتـاب [بدايـة حـال الحـلاج ونهايتـه، لابـن باكويـه: ٣٥]: وقـد ذكرهـا أيضـاً، الخطيـب البغـدادي في: [تـاريخ بغـداد: ١٢١/٨]، ونقلهـا عـن علـي بـن ايدمـر الجلدكي. وذكرها من المؤرخين، أبو الحسـن علـي ابـن الأثـير في: كتـاب: [الكـامل في التـاريخ: ٩٥/٨]. كما أن هذه القصة تُرجمت إلى اللغة الفارسية، و مترجمها أبـو الحسـن علـي بـن محمـد الديلمي.

[٣٦] وفي رواية أخرى: «وكان في ابتدائه لا يفطـر إذا هـلّ رمضـان إلا يـوم العيـد، وعليـه ثيـاب سود، ويقول: هذا لباس من رُدَّ عليه عمله. ويختم القرآن كل ليلـة في ركعتـين». ذكرهـا الأمـير داماد في كتابه: [الرواشح السماوية في شرح الأحاديث الإمامية: ٣٤٥] وفي رواية الخوانْساري: «قال: إن الحلاج كان إذا دخل شهر رمضان، ويرى هلاله ينوي صيام تمام الشهر نيّة واحدة، ثم لا يفطر بشيء بعد ذلك إلى انقضاء الشـهر». كتـاب: [روضـات الجنـات، للخوانْسـاري: ٢٣٧/٢].

من ظنّ أن الإلهية تمتزج بالبشرية، أو البشرية تمتزج بالإلهية فقد كفر. فإن الله تعالى تفردّ بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم، فلا يشبههم بوجه من الوجوه، ولا يشبهونه بشيء من الأشياء، وكيف يتصوّر الشبه بين القديم والمحدث.

ومن زعم أن الباري في مكان أو على مكان، أو متصل بمكان أو يتصور على الضمير أو يتخايل في الأوهام، أو يدخل تحت الصفة، والنعت فقد أشرك.

عن عثمان بن معاوية أنه قال:

بات الحلاّج في جامع دينور، ومعه جماعة. فسأله واحد منهم، وقال:

يا شيخ ما تقول فيما قال فرعون؟

قال: كلمة حق.

فقال: ما تقول فيما قال موسى؟

قال: كلمة حق. لأنهما كلمتان جرتا في الأبد، كما جرتا في الأزل.

وعنه أيضاً أنه قال:

ما ظهرت النقطة الأصلية إلا لقيام الحجة بتصحيح عين الحقيقة، وما قامت الحجة بتصحيح عين الحقيقة إلا لثبوت الدليل على أمر الحقيقة.

وقال ياسين وموسى:

هما لوحا أنوار الحقيقة، وإلى الحق أقرب.

وقال أيضاً:

صفات البشرية لسان الحجة على ثبوت الصفات الصمدية، وصفات الصمدية لسان الإشارة إلى فناء صفات البشرية. وهما طريقان إلى معرفة الأصل الذي هو قوام التوحيد.

وقال:

نزول الجمع ورطة وغبطة، وحلول الفرق فكاك وهلاك، وبينهما يتردد الخاطران، فإما متعلّق بأستار القِدم، أو مستهلك في بحار العدم.

وقال:

من لاحظ الأزلية والأبدية، وغمّض عينيه عمّا بينهما، فقد أثبت التوحيد، ومن غمض عينيه عن الأزلية والأبدية، ولاحظ ما بينهما فقد أتى بالعبادة، ومن أعرض عن البين، والطرفين فقد تمسك بعروة الحقيقة.

وقال[٣٧]:

من طلب التوحيد في غير لام ألف فقد تعرّض للخوضان في الكفر، ومن تعرّف هو الهوية في غير خط الاستواء، فقد جاس خلال الحيرة المذمومة التي لا استراحة بعدها.

وقال:

القرآن لسان كل علم، ولسان القرآن الأحرف المؤلفة، وهي مأخوذة من خط الاستواء، أصله ثابت وفرعه في السماء، وهو ما دار عليه التوحيد.

وقال:

عين التوحيد مودعة في السر، والسر دموع بين الخاطرين، والخاطران مودعان بين الفكرتين، والفكرة أسرع من لواحظ العيون، ثم أنشأ يقول:

لأنوار نور النور في الخلق أنوارُ ... وللسرِّ في سرِّ المُسرّين أسرارُ
وللكون في الأكوان كونُ مكوّن ... يكنُّ له قلبى ويهدي ويختارُ
تأمل بعين العقل ما أنا واصفٌ ... فللعقل أسماعٌ وُعاةٌ وأبصارُ

وقال:

الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم، وأما من حيث الحقيقة، فلا فرق بينهما.

وقال أحمد بن فارس:

رأيت الحلاّج في سوق القطيعة قائماً على باب مسجد، وهو يقول: أيها الناس، إذا استولى الحق على قلب أخلاه عن غيره. وإذا لازم أحداً

---

[٣٧] وردت في الأصل «ومال».

أفناه عمن سواه، وإذا أحب عبداً حثّ عباده بالعداوة عليه، حتى يتقرب العبد مقبلاً عليه، فكيف لي، ولم أجد من الله شمة، ولا قرباً منه لمحةً، وقد ظلّ الناس يعادونني.

ثم بكى حتى أخذ أهل السوق في البكاء. فلما بكوا عاد ضاحكاً، وكاد يقهقه، ثم أخذ في الصياح صيحات متواليات مزعجات، وأنشأ يقول:

مواجيدُ حق أوجد الحقُ كلّها	وإن عجزت عنها فهوم الأكابر[٣٨]
وما الوجدُ إلاّ خطرةٌ ثم نظرةٌ	تنشى لهيباً بين تلك السرائر
إذا سَكنَ الحق السَّريرةَ أظهرت	ثلاثة أحوال لأهل البصائر
فحالٌ يبيدُ السّر عن كُنهِ حاله	ويُحضرهُ للوجد في حال حائر
وحالٌ به زُمّت ذُرى السّر كلها	إلى منظر أفناهُ عن كلّ ناظر

يروى عن مسعود بن الحارث الواسطي، أنه قال:

سمعت الحسين بن منصور الحلاّج يقول لإبراهيم بن فاتك، وأنا أسمع، وكنت منزوعاً:

يا إبراهيم، إنّ الله لا يحيط به القلوب، ولا تدركه الأبصار، ولا تمسكه الأماكن، ولا تحويه الجهات، ولا يتصّور في الأوهام، ولا يتخايل للفكر، ولا يدخل تحت كيف، ولا ينعت بالشرح والوصف. ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتنفس إلا وهو معك. فانظر كيف تعيش. وهذا لسان العوام. وأما لسان الخواص فلا نطق له، والحق حقٌ والعبد باطل، وإذا اجتمع الحق والباطل

---

[٣٨] وردت هذه الأبيات في: كتاب: [طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي: ٧٥]. وزعم أبو الحسن علي بن يوسف الشطنوفي في كتابه [بهجة الأسرار ومعدن الأنوار: ١٨٥]: أن الشيخ حياة بن قيس الحراني تمثّل بها. وقد ذكرها أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي في كتابه: [التعرف لمذهب أهل التصوف: ١١٥]. كما وردت في: [طبقات الصوفية: ١٩٥]، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي. وفي [مسالك الأبصار: ٢١٥/٧].

فيضرب ﴿بالحقّ على الباطل فيدمغـه، فـإذا هـو زاهـق، ولكـم الويـل ممـا تصفون﴾[٣٩].

وقال أحمد بن القاسم الزاهد:

سمعت الحلاّج في سوق بغداد يصيح: يا أهل الإسلام أغيثونـي، فليس يتركني ونفسي فآنس بها، وليس يأخذني من نفسي فاستريح منهـا، وهـذا دلال لا أطيقه[٤٠]، ثم أنشأ يقول:

حويتُ بكلّى كـلّ كلّـك يـا قُدسـى   تكاشـفُنى حتـى كـأنك في نفسـى

أقلّـب قلـبى في سـواك فـلا أرى   سوى وحشـتى منـه، وأنـت بـه أُنسـى

فهـا أنـا في حبـس الحيـاة مُمَّنـعٌ   عن الأُنس فاقبضنى إليـك مـن الحبـس

و قال أبو القاسم عبد الله بن جعفر المحّب:

لما دخل الحلاّج بغداد، واجتمع حوله أهلها، حضر بعض الشيوخ عنـد بعض رؤساء بغداد، يقال لـه: أبـو طـاهر السـاوي، وكـان محبـاً للفقـراء، فسأله الشيخ أن يعمـل دعـوة، ويحضـر فيهـا الحـلاّج. فأجابـه إلى ذلـك، وجمع المشايخ في داره، وحضر الحلاّج. فقال للقوّال:

قل ما يختار الشيخ، يعني به الحلاّج.

فقال الحلاّج:

إنما يوقظ النائم، وقوّال الفقراء ليس بنائم.

فقال القوّال: وطاب وقت القوم.

ووثب الحلاّج وسطهم، وتواجد تواجـداً تـلألأت منـه أنـوار الحقيقـة، وأنشد:

ثلاثـة أحـرف لا عجـمَ فيهـا   ومعجومـان وانقطـع الكـلامُ

---

(٣٩) سورة الأنبياء، الآية ١٨.

(٤٠) وردت هـذه الروايـة دون الأبيـات في: كتـاب: [الكشـكول: ٩٦] لبهـاء الديـن العـاملي. كما وردت في كتاب: [القول السديد في ترجمة العارف الشـهيد، للشـيخ ابـن نعمـان الجميلـي: ٣٥].

فمعجـــومٌ يشـــاكل واجديـــه ومـــتروكٌ يصدّقُـــه الأنـــامُ

وبـاقي الحـرفِ مرمـــوزٌ معمـــى فـلا سـفرٌ هنـاك ولا مُقـامُ[41]

عن جندب بن زادان الواسطي، وكان من تلامذة الحلاّج، قال:

كتب الحسين بن منصور كتاباً هذه نسخته:

بسم الله الرّحمن الرّحيم، المتجلي عن كل شئ لمن يشاء.

السلام عليك يا ولدي. ستر الله عنك ظـاهر[42] الشـريعة، وكشـف لـك حقيقة الكفر. فإن ظاهر الشريعة كفر خفي، وحقيقـة الكفـر معرفـة جليـة. أما بعد[43]:

حمد لله الذي يتجلى على رأس إبـرة لمـن يشـاء، ويسـتتر في السـموات والأرضين عمن يشاء، حتى يشـهد هـذا بـأن لا هـو، ويشـهد ذلـك بـأن لا غيره، فلا الشاهد على نفيه مردود، ولا الشاهد بإثباتـه محمـود. والمقصـود من هذا الكتاب، أني أوصيتك أن لا تغتر بالله، ولا تيأس منه، ولا ترغـب في محبته، ولا ترض أن تكون غير محـبّ، ولا تقـل بإثباتـه، ولا تمـل إلى نفيه، وإياك والتوحيد. والسلام[44].

وقال جندب:

دخل عليّ في نصف الليل ببغداد بهرام بـن مرزبـان المجوسـي، وكـان مكثراً، ومعه كيس فيه ألفا دينار، وقال لي: تذهب معي إلى الحـلاج فلعلّـه

---

[41] في كتاب: [الفَرق بين الفِرَق، لأبي منصور عبد القـاهر البغـدادي: ٢٥١]. نتـف مـن هـذه الرواية مع اختلاف يسير.

[42] وردت في الأصل «طاهر».

[43] وردت في الأصل «أما بعد».

[44] وردت هذه القطعة في: كتاب: [سفينة بحر المحيط: ١٨٥]. وفي رواية عبد الكريم الجيلـي في كتابه: [المناظر الإلهية: ٧٥]. «قال الحسين بن منصور الحلاج لبعض تلامذته، كشف الله لك سرّ الكفر، فإن فيه حقيقة الإيمان وحجب عنك سرّ الإيمان، فـإن فيـه حقيقـة الكفـر». وقـد شـرحها الشيخ محيي الدين بن عربي في: [تذكرة النوادر: ١٩٥]. وقد إشار إليهـا أبـو علـي بـن سـينا في رسالة له إلى أبي سعيد بن أبي الخير بقوله: «الدخول إلى الكفر الحقيقي، والخـروج عـن الإسـلام المجازي».

يحتشمك فتعطيه هذا الكيس. فذهبت معه، ودخلنا عليه، وكان قاعداً على سجادته يقرأ القرآن ظاهر. فأجلسنا. وقال: ما الحاجة في هذا الوقت؟

فتكلمت في ذلك فأبى أن يقبل، فألححت عليه، وكان يحبني، فَقَبِل. وقال لي: لا تخرج، فوقفت، وخرج المجوسي.

فلما ذهب المجوسي، قام الحلاّج، وخرجت معه حتى دخل جامع المنصور، ومعه الكيس والفقراء نيام. فأيقظهم، وفرّق الدنانير عليهم بعد أن يفضيهم حتى لم يبق في الكيس شيء.

فقلت: يا شيخ، هلاّ صبرت إلى الغد.

فقال: الفقير إذا بات في عقارب نصيبين، خير له من أن يبيت مع المعلوم[٤٥].

عن إبراهيم بن فاتك قال:

دخلت على الحلاّج ليلةً، وهو في الصلاة مبتدئاً بقراءة سورة البقرة. فصلّى ركعات حتى غلبني النوم. فلما انتبهت سمعته يقرأ سورة ﴿حم عسق﴾[٤٦]. فعلمت أنه يريد الختم. فختم القرآن في ركعة واحدة، وقرأ في الثانية ما قرأ، فضحك إليّ وقال:

ألا ترى أني أصلي أراضيه، من ظن أنه يُرضيه بالخدمة فقد جعل لرضاه ثمناً، ثم ضحك، وأنشأ يقول:

إذا بَلغَ الصبُّ الكمالَ من الفتى   ويذهل عن وصل الحبيبِ من السّكر

---

[٤٥] وفي رواية أخرى: «دخل بهرام المجوسي - وكان موسراً - على الحلاّج بكيس فيه ألف دينار، فأبى أن يقبله منه، فألح عليه جماعة من أصحابه، فأخذ الكيس من المجوسي، فنهض، ودخل جامع المنصور، وكان ليلاً، فجعل يوقظ الفقراء، ويفرق عليهم حتى لم يبق منه شيء، فقال له أصحابه: يا شيخ لِمَ لا تصبر إلى الغد؟ فقال لهم: لأن يبيت الفقير في عقارب تلدغه خير له من أن يبيت ومعه معلوم».

[٤٦] سورة الشورى الآية ١ و٢.

فيشـهدُ صدقـاً حيـث أشـهدهُ الهـوى   بـأن صـلاةَ العاشـقين مـن الكفـر[٤٧]

وقال أبو نصر بن القاسم البيضاوي:

رأيت رقعة بخط الحلاج عند بعض تلامذته، أما بعد:

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الخـارج مـن حـدود الأوهـام، وتصاوير الظنون وتخييل الفكِر وتحديد الضمير، الذي ﴿ليس كمثله شـيء، وهو السميعُ البصيرُ﴾[٤٨].

واعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل إلى مواقف التوحيـد، فإذا وصل إليها سقطت من عينه الشـريعة، واشـتغل بـاللوائح الطالعـة مـن معدن الصدق، فإذا ترادفت عليه اللوائـح، وتتـابعت عليـه الطوالـع، صـار التوحيد عنده زندقة، والشريعة عنده هوسـاً، فبقـي بـلا عـين ولا أثـر، إن استعمل الشريعة استعملها رسماً، وإن نطق بالتوحيد نطق به غلبةً وقهراً.

وقال ابن أخته:

رأيت بخط خالي: من فرّق بين الكفر والإيمان فقد كفـر، ومـن لم يفـرق بين الكافر والمؤمن فقد كفر.

يروى عن عبد الودود بن سعيد بن عبد الغني الزاهد، قال:

دخلت على الحلاّج، فقلت له: دلني على التوحيد؟

فقال: التوحيد خارج عن الكلمة حتى يعبر عنه.

قلت: فما معنى لا إله إلا الله؟

---

(٤٧) وقد وردت هذه الأبيات برواية أخرى:

إذا بلـغ الصـب الكمـال مـن الهـوى   وغاب عن المذكور في سطوة الذكـر
فشـاهد حقـاً حـين يشـهده الهـوى   بـأن صـلاة العـارفين مـن الكفـر

شرح هذه الأبيات ابـن تيميـة في رسـالته: [إبطـال وحـدة الوجـود، والـردّ علـى القـائلين بهـا: ١١٥]، فقال: «هذا الكلام مع أنه كفر هو كلام جاهل لا يتصور ما يقول، فإن الفنـاء والغيـب هو أن يغيب بالمذكور عن الذكر وبالمعروف عن المعرفة وبـالمعبود عـن العبـادة حتـى يفنـى مـن لم يكن...».

(٤٨) سورة الشورى، الآية: ١١.

قال:

كلمة شغل بها العامة لئلا يختلطوا بأهل التوحيد، وهذا شرح التوحيد من وراء الشيء، ثم احمرت وجنتاه، وقال: أقول لك مجملاً.
قلت: بلى.

قال: من زعم أنه يوّحد الله فقد أشرك.

وعنه قال:

رأيت الحلاّج دخل جامع المنصور، وقال[٤٩]:

أيها الناس اسمعوا مني واحدة، فاجتمع عليه خلق كثير، فمنهم محب، ومنهم منكر فقال: اعلموا أن الله تعالى أباح لكم دمي فاقتلوني.

فبكى بعض القوم. فتقدمت من بين الجماعة وقلت: يا شيخ كيف نقتل رجلاً يصلي ويصوم ويقرأ القرآن. فقال: يا شيخ المعنى الذي به تُحقن الدماء خارج عن الصلاة والصوم وقراءة القرآن فاقتلوني تؤجروا واستريح. فبكى القوم، وذهب فتبعته إلى داره، وقلت: يا شيخ ما معنى هذا، قال: ليس في الدينا للمسلمين شغل أهم من قتلي، فقلت له: كيف الطريق إلى الله تعالى؟

قال: الطريق بين اثنين، وليس مع الله أحد. فقلت: بيّن. قال: من لم يقف على إشاراتنا لم ترشده عباراتنا. ثم قال:

أأنت أم أنا هذا في إلهين ... حاشاك حاشاك من إثبات اثنين

هويةٌ لك في لائيتي أبداً ... كلّي على الكلّ تلبيس بوجهين

فأين ذاتك عني حيث كنت أرى ... فقد تبين ذاتي مني حيث لا أين

---

[٤٩] وردت في كتاب: [هتك الأستار، لعبد الغني النابلسي: ١٥]. وكذلك في كتاب: [فاتح الأبيات في شرح مثنوي، لإسماعيل بن أحمد الأنقودي: ٨]. وكذلك ذكره شهاب الدين السهروردي. وورد في كتاب: [الأسفار الأربعة، لصدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي: ٢٥]. وورد ذكرها في كتاب: [رياض العارفين، لرضى قلي خان: ٦٩].

وأيــن وجهــك مقصـــود بنــاظرتي   في بـاطن القلـب أم في نـاظر العـين

بيـــني وبينـــك إنّـــيٌ يزاحمـــني   فـارفع بذاتـك أيّـنيّ مـن البـين

فقلت له: هل لك أن تشرح هذه الأبيات.

قال: لا يسلمّ لأحد معناها إلا لرسول الله ﷺ استحقاقاً، ولي تبعاً.

وعن الحسين بن حمدان قال:

دخلت على الحلاج يوماً فقلت له: أريـد أن أطلـب الله، فـأين أطلبـه. فاحمرت وجنتاه وقال: الحق تعالى عن الأيـن والمكـان، وتفـرّد عـن الوقـت والزمان، وتنزه عن القلب والجنان، واحتجب عن الكشف والبيان، وتقـدس عن إدراك العيون، وعما يحيط به أوهام الظنون، تفرّد عن الخلق بالِقدَم كمـا تفردوا عنه بالحدث، فمن كان صفته كيف يطلب السبيل إليه. ثم بكى، وقال:

فقلت أخلائـي هـي الشـمسُ ضوءُهـا   قريـبٌ ولكـن في تناولهـا بُعـدُ

وعنه أيضاً قال:

سمعت الحسين يقول في سوق بغداد:

ألا أبلـــغ أحبـــائي بـــأني   ركبــت البحــر وانكســر الســفينة

ففي دين الصليب يكـون موتـي   ولا البطحـا أريـد ولا المدينـة[٥٠]

فتبعه، فلما دخل داره كـبّر يصلّـي، فقـرأ الفاتحـة والشـعراء إلى سـورة الروم، فلما بلـغ إلى قولـه تعـالى ﴿وقـال الذيـن أوتـوا العلـم والإيمـان﴾ [٥١] كررها وبكى.

---

[٥٠] قال عبد الوهاب الشعراني في تفسير هذا البيـت: «أما الحـلاج فلـم يثبـت عنـه مـا يوجـب القتل». وما نقل عنه يصح تأويله نحو قوله «على دين الصليب يكون موتي». ومراده أنـه يمـوت على دين نفسه فإنه هو الصليب، وكأنه قال أنا أموت على دين الإسـلام، وأشـار إلى أنـه يمـوت مصلوباً. ينظر: [لطائف المنن:٨٥]. وقـد ذكـر البيـت الأول حميـد الديـن النـاكوري في كتـاب: [طوالع الشموس:٢١٢].

[٥١] سورة الروم، الآية:٥٦.

فلما سلّم قلت: يا شيخ تكلمت في السوق بكلمة من الكفر، ثم أقمت القيامة هاهنا في الصلاة، فما قصدك؟.

قال:

إن تقتل هذه الملعونة. وأشار إلى نفسه. فقلت: يجوز إغراء الناس على الباطل.

قال:

لا، ولكني أغريهم على الحق، لأن عندي قتل هذه من الواجبات، وهم إذا تعصبوا لدينهم يؤجرون.

وعنه قال:

سمعت الحسين يقول:

من أراد أن يصل إلى المقصود، فلينبذ الدنيا وراء ظهره، ثم أنشد يقول:

عليكِ يا نفسُ بالتسلّي	العزُّ في الزهد والتخلي
عليكِ بالطلعة التي مشـ	ـكاتها الكشفُ والتجلي
قد قام بعضي ببعض بعضي	وهام كلّي بكلّ كلّي

قال أحمد بن فاتك:

رأيت رب العزة في المنام كأني واقف بين يديه. فقلت: يارب. ما فعل الحسين حتى استحق تلك البليّة فقال: إني كاشفتهُ بمعنى، فدعا الخلق إلى نفسه، فأنزلتُ به ما رأيت[٥٢].

---

[٥٢] ذكرها أبو عبد الرحمن السلمي في: كتاب [طبقات الصوفية:١٣٥]. برواية عن أبي بكر البجلي عن أبي الفاتك البغدادي. كما وذكرها ابن باكويه في كتاب: [بداية حال الحلاج ونهايته:٣٥]. برواية عن حمد بن أحمد بن فاتك. وذكرها الذهبي في: [تاريخ الإسلام:١٧١] برواية عن إبراهيم بن فاتك، ونقلها عنه عبد الرحمن بن أحمد جامي. وكذا في كتاب: [نفحات الأنس:٢٥٢]. وقد شرحها السهروردي في كتاب: [التعرف:٤١]، وفي: [تذكرة الأولياء، للعطار: ١٤٥] رواية عن الشبلي. ووردت في [تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي:١٣٢/٨]. ووردت في [محاسن الإسلام، لمحمد بن عبد الرحمن البخاري: باب الودائع].

وقال أيضاً:

قال الحلاّج:

ما وحّد الله غير الله،وما عرف حقيقة التوحيد غير رسول الله ﷺ.

وعنه قال:

سمعت الحسين بن منصور يقول:

ليس على وجه الأرض كفر إلا وتحته إيمان، ولا طاعة إلا وتحتها معصية أعظم منها، ولا إفراد بالعبودية إلا وتحته ترك الحرمة، ولا دعوى المحبة إلا وتحتها سوء الأدب. لكن الله تعالى عامل عباده على قدر طاقتهم.

عن خمرة بن حنظلة السّماك قال[٥٣]:

دخل الحلاج واسط، وكان له شغل. فأول حانوت استقبله كان لقّطان فكلفه الحلاّج السعي في إصلاح شغله، وكان للرجل بيت مملوء قطناً، فقال له الحسين:

اذهب في إصلاح شغلي، فإني أعينك على عملك.

فذهب الرجل، فلما رجع رأى كل قطنه في دكانه محلوجاً، وكان أربعة وعشرين رطلاً، فسمي من ذلك اليوم [حلاّجاً][٥٤].

وعن أحمد بن فاتك قال:

لما حُبس الحلاج ببغداد كنت معه، فأول ليلة، جاء السّجان وقت العتمة فقيّده، ووضع في عنقه سلسلة، وأدخله بيتاً ضيقاً.

---

[٥٣] وردت في كتاب: [بداية حال الحلاج ونهايته، لابن باكويه:٣٦] برواية عن أبي علي بن مرذانقا، عن أبي عبد الله بن البازيار. وكذلك في: [تاريخ الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي:١٨]، وكتاب: [تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي:١١٥/٨] وكتاب: [عيون التواريخ، لصلاح الدين بن شاكر الكتبي:٥٤]. كما وذكرها محمد بن أبي الفضل الهمذاني في كتاب: [التكملة:٢٢]. وذكرها عبد الكريم بن محمد السمعاني في كتاب: [الأنساب:١٨٢]. ووردت في كتاب: [وفيات الأعيان، لابن خلكان:١٨٧/١]. وذُكرت في كتاب: [الكواكب الدرّية، لعبد الرؤوف بن محمد المناوي: مادة الحلاج].

[٥٤] وردت في الأصل «خلاّجاً».

فقال له الحسين: لِمَ فعلت بي هذا؟

قال: كذلك أُمرت.

فقال له الحلاّج:

الآن أمنت مني.

قال: نعم. فتحرّك الحلاّج فتناثر الحديد عنه كالعجين، وأشار بيده إلى الحائط فانفتح فيه باب، فرأى السّجان فضاء واسعاً فعجب من ذلك، ثم مّد الشيخ يده.

وقال: الآن افعل ما أمرت به. فأعاده كما فعل أول مرة.

فلما أصبح أخبر السّجان المقتدر الخليفة بذلك. فتعجب الناس، واستأذن نصر القشوري الخليفة في بناء بيت له في السجن، فأذن له، وكان محباً له.

فبنى له بيتاً، وفرشه، وكنت معه فيه إلى أن أُخرج وقُتل وصُلب.

وقال أحمد بن يونس:

كنّا في ضيافة ببغداد، فأطال الجنيد اللسان في الحلاّج، ونسبه إلى السحر والشعبذة، والنيرنج، وكان مجلساً خاصاً غاصاً بالمشايخ، فلم يتكلم أحد احتراماً للجنيد.

وقال ابن خفيف:

يا شيخ لا تطوّل، ليس إجابة الدعاء والأخبار عن الأسرار من النيرنجات والشعبذة والسحر. فاتفق القوم على تصديق ابن خفيف.

فلما خرجنا، أخبرت الحلاج بذلك، فضحك، وقال:

أما محمد بن خفيف فقد تعصّب لله وسيؤجر على ذلك، وأما أبو القاسم الجنيد، فقد قال: إنه كذب ولكن قل له: ﴿سيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾(٥٥).

---

(٥٥) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

عن إبراهيم بن محمد النهرواني، قال[٥٦]:

رأيت الحلاّج في جامع النهروان في زاوية يصلي، وختم القرآن في ركعتين، فلما أصبح، سلّمت عليه، وقلت: يا شيخ أفدني بكلمة من التوحيد.

فقال:

أعلم أن العبد إذا وحّد ربّه تعالى فقد أثبت نفسه. ومن أثبت نفسه، فقد أتى بالشرك الخفي. وإنما الله هو الذي وحّد نفسه على لسان من شاء من خلقه، فلو وحد نفسه على لساني فهو وشأنه، وإلا فما لي يا أخي والتوحيد. ثم قال:

من رامهُ بالعقل مُسترشداً[٥٧].

عن أحمد بن عبد الله قال:

سمعت الحلاج، وقد سئل عن التوحيد فقال:

تمييز الحدث عن القدم، ثم الاعراض عن الحدث والإقبال على القدم، وهذا حشو التوحيد. وأما محضه، فالفناء بالقدم عن الحدث، وأما حقيقة التوحيد فليس لأحد إليها سبيل إلا لرسول الله ﷺ.

وقال ابن فاتك:

سمعت الحلاّج يقول:

في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الأحرف في لام ألف، وعلم لام ألف في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل،

---

[٥٦] ذكرها أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي في كتاب: [التعرف لمذهب أهل التصوف: ٣٨]. وكذا ذكرها عبد الرحمن بن احمد جامي في كتاب: [نقد الفصوص: ١١١]. وقد ذكرها الإمام محيي الدين بن عربي في كتاب: [نقش الفصوص، بتحقيقي: ٤٥].

[٥٧] وتتمة البيت:

من رامه بالعقل مسترشداً	أسرحه في حيرةٍ يلهو
قد شاب بالتلبيس أسراره	يقول من حيرته هل هو

وعلم الأزل في المشيئة، وعلم المشيئة في غيب الهو، وعلم غيب الهـو ﴿ليس كمثله شيء﴾[٥٨]، ولا يعلمه إلاّ هو[٥٩].

و قال أحمد بن فاتك:

قلت للحلاّج: أوصني.

قال:

هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك[٦٠].

عن أحمد بن عطاء بن هاشم الكرخي قال:

خرجت ليلة إلى الصحراء، فرأيت الحلاج يقصدني، فملتُ إليه وقلت: السلام عليك أيها الشيخ.

فقال:

هذا كلب بطنه جائع فاءتني بحمل مشوي وزغفان حوّاري وأنا واقف ها هنا، فمضيت وحصّلت ما أحضرته.

فربط الكلب بإحدى رجليه، ووضع الحمل والزغفان بين يديه حتى أكله، ثم خلي الكلب، وأرسله.

وقال لي:

---

(٥٨) سورة الشورى، الآية:١١.

(٥٩) ذكر السلمي تفسير الحلاّج لسورة الأعراف ﴿المص﴾ فقال: «الألف ألف المألوف، واللام لام الآلاء، والميم ميم الملك، والصاد صاد الصدق». وقال في تفسير سورة محمد ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ [١٩]. «العلم الذي دعي إليه المصطفىﷺ هو علم الحروف، وعلم الحروف في لام ألف...». [تاريخ الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي:١٩].

(٦٠) ذكر هذه الوصية ابن باكويه في: [بداية حال الحلاج ونهايته:٣٥] برواية حمد بن الحلاج ابن أحمد بن فاتك. ونقلها الذهبي في: [تاريخ الإسلام:٦/٢٣٠]، وكذا عند الغزالي: [إحياء علوم الدين:٤/٥٥]. شرحها اليافعي في: [مرآة الجنان:٢٣٥]،وقال: «يعني أنها لا بد لها من أن تشتغل إن لم تشغلها بالطاعات ووظائف العبادات شغلتك بالخواطر المذمومة الموقعة في الهوى والآفات». وذكرها السلمي، والمناوي في: [الكواكب الدرية:٢٣٥]، وابن خميس الكعبي في: [مناقب الأبرار:٨٥]. ووردت في: [تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي:٨/١١٥] برواية أخرى.

هذا الذي تطالبني به نفسي منذ أيام، وكنت معنفها حتى أخرجتني الليلة في طلبه، والله تعالى غلّبني عليها، ثم طاب وقته، وأنشأ يقول في وجده:

كفرت بدين الله والكفُر واجب لدي وعند المسلمين قبيح

ثم قال لي:

ارجع ولا تقف أثري، فيضّرك[٦١].

عن إبراهيم بن شيبان قال:

دخلت مكة مع أبي عبد الله المغربي، فأُخبرنا أن ها هنا الحلاّج مقيم بجبل أبي قبيس، فصعدناه وقت الهاجرة، فإذا به جالس على صخرة، والعرق يسيل منه، وقد ابتلّت الصخرة من عرقه.

فلما رآه أبو عبد الله رجع، وأشار إلينا أن نرجع فرجعنا، ثم قال أبو عبد الله:

يا إبراهيم، إن عشت ترى ما يلقى هذا، سوف يبتليه الله ببلية لا يطيقها أحد من خلقه يتصبّر مع الله[٦٢].

قال إبراهيم بن شيبان:

إياكم و الدعوى، ومن أراد أن ينظر إلى ثمرات الدعوى، فلينظر إلى الحلاّج، وما جرى عليه[٦٣].

---

(٦١) ذكرها عين القضاة الهمذاني في: كتاب: [زبدة الحقائق:٦٥]. ونقلها الكازروني في شرحه على رسالة ابن سينا. وورد ذكرها في: [كتاب الطالبين وعدة السالكين، لصلاح بن مبارك البخاري:٤١]. وكذا في كتاب: [رياض العارفين، لرضي قلي خان:٧١]. وذكرها الشيخ محيي الدين بن عربي في رسائله. ينظر: [رسائل ابن عربي، تحقيق: موفق فوزي الجبر:٢/٣٦٠].

(٦٢) ذكرها ابن باكويه في: [كتاب بداية حال الحلاج ونهايته:٤٥]: بروايه عن أبي الفوارس الجوزجاني عن إبراهيم بن شيبان. ونقلها الخطيب البغدادي في: [تاريخ بغداد:٨/١٢١]. ووردت في كتاب: [الكامل في التاريخ،لابن الأثير:٨/٩٥]. ووردت في كتاب: [مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي:٣١١].

(٦٣) ذكرها الذهبي في: [تاريخ الإسلام:٣١١]،كما نقلها أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه:[تاريخ الصوفية:١٩]. وذكرها الخطيب البغدادي في: [تاريخ بغداد:٨/١٢٢]. برواية أبي علي الهمذاني. ووردت في كتاب: [بداية حال الحلاج ونهايته، لابن باكويه:٣٥].

عن إبراهيم بن شيبان قال[٦٤]:

دخلت على ابن سريج يوم قتل الحلاج، فقلت:

يا أبا العباس، ما تقول في فتوى هؤلاء في قتل هذا الرجل. قال:

لعلهم نسوا قول الله تعالى: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله﴾[٦٥].

وقال الواسطي:

قلت لابن سريج:

ما تقول في الحلاّج؟ قال:

أما أنا فأراه حافظاً للقرآن عالماً به، ماهراً في الفقه، عالماً بالحديث والأخبار والسنن، صائماً الدهر، قائماً الليل، يعظ ويبكي ويتكلم بكلام لا أفهمه، فلا أحكم بكفره[٦٦].

يُروى أن الشبلي دخل يوماً على الحلاّج فقال له:

يا شيخ، كيف الطريق إلى الله تعالى؟

فقال: خطوتين، وقد وصلت، اضرب بالدنيا وجه عشّاقها، وسلّم الآخرة إلى أربابها[٦٧].

وقال أحمد بن فاتك:

سمعت الحلاّج يقول:

---

[٦٤] ذكرها عبد الرحمن جامي في: كتاب: [نفحات الأنس:٢٤٥].

[٦٥] سورة غافر، الآية:٢٨.

[٦٦] ذكرها ابن خلكان في: [كتاب وفيات الأعيان:١/١٨٥]،وقال: «إن أبا العباس بن سريج كان إذا سئل عنه يقول هذا رجل خفي عني حاله، ولا أقول فيه شيئاً». نقله الدميري في كتابه: [حياة الحيوان:١/٣١١]، وذكرها روزبهان البقلي في: [شرح الشطحات:١٨].

[٦٧] ذُكرت هذه الحكاية في: [تذكرة الأولياء، للعطار:١٣٩]. شرحها لشهاب الدين السهروردي في رسالته: [مؤنس العشاق:٣٩].

أنـا الحـقُّ والحـقّ للحـقّ حـقُّ لا بسٌ ذاته فما ثمّ فرقُ[٦٨]

حدثني أبو علي الفارسي قال[٦٩] :

رأيت الحلاّج واقفاً على حلقة أبي بكر الشبلي، فنفض كمّــه في وجهــه وأنشد:

يـا سّـر سّـر يـدق حتـى	يجلّ عن وصف كـل حـى
وظـــاهراً باطنـــاً تبـــدى	مـن كـل شـيء لكـل شـي
يا جملة الكـل لسـت غـيري	فمـــا اعتـــذاري إذاً إليّ

وقال الحلواني:

قدم الحلاج للقتل، وهو يضحك، فقلت:

يا سيدي، ما هذا الحال؟

قال:

دلال الجمال، الجالب إليه أهل الوصال[٧٠] .

---

[٦٨] ورد في كتاب: [طبقات الصوفية، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمـد الهـروي: مـادة الحـلاج].

وورد البيت برواية أخرى:

وحدنـي واحـدي بتوحيـد صـدق	مـا إليـه مـن المسـالك طـرق
هـو الحـق والحـق للحـق حـق	ولابـس ملبـس الحقـائق حـق
قـد تجلـت طوالـع زاهـرات	يتشعشـعن مـن لوامـع بـرق

ونقله أبو نصر السراج في كتابه: [اللمع:٣٤٧].

[٦٩] نقد هذه الأبيات أبو العلاء المعري في: [رسـالة الغفـران: ١٥٠]، كمـا أورد الأبيـات كلهـا المطهر بن طاهر المقدسي في كتاب: [البـدء والتـاريخ:٢/٩١]. وزاد على الأبيـات الثلاثـة بيتـاً، وهو:

إن اعتـذاري إليـك جهـل	وعظـم شـك وفـرط عـي

وجاء في كتاب: [الفَرق بين الفرق، لعبد القاهر البغدادي:٢٤٧]. «وروي أن الحـلاج مّـر يومـاً على الجنيد، فقال له: أنا الحق، فقال: أنت بالحق أية خشبة تفسد».

[٧٠] ذكرها عبد الرؤوف بن محمد المناوي في: كتاب: [الكواكب الدرية:١٣٥].

قال بعضهم:

رأيت حسيناً الحلاّج، وقد سمع[٧١]. قارئـاً يقرأ، فـأخذه [وجـد][٧٢]، فرأيته يرقص، ورجلاه مرفوعتان[٧٣] عن الأرض، فإذا هو يقول:

مـن أطلعـوه علـى سّـر فبـاح بـه	لن يأمنوه على الأسـرار مـا عاشـا
وعـاقبوه علـى مـا كـان مـن زلـل	وأبد لوه مكان الأنس إيحاشـا[٧٤]

وقيل:

كان الحلاّج في بدايته يلبـس مـرات المسـوح، ومـرات الثـوب، ومـرات الشاشية، وأول سفره عن بلده إلى البصرة، كان عمـره ثمـاني عشـرة سـنة، وتزوج وخرج إلى مكة، وجرى بينه وبين أبـي يعقـوب النهرجـوري كـلام، وقال في جملة كلامه:

وإن ورد عليك بعض إشـارة ورمـز، فلـولا أن تكـون الـواردات متصلـة، والأحـوال مشـتبهة مشـتركة في المنزلـة لمـا تقـابلت الـواردات ولا تســاوت الحالات، وعُلمت الخافيات.

قال:

اذهب، فعندي من الأنباء ما فيه مزدجر، وعن غد يأتيك الخبر.

فقال: يا شيخ قد أعلمني المعلم بعد أن أخبرني المخبر.

فقال: لا أعلمك إطلاعاً إلا إذا ثبت لك عن أخبار كان أوله سماعاً.

فقال: ياشيخ إنتج الأخبار شيئاً على سبيل الفراسة، فلم أثق بـه حتـى اطلعت مع الوارد على الأمر اطلاعاً، وعقدت أخباره علـى علمـي، فتقـرب

---

[٧١] وردت في الأصل «شمع».

[٧٢] ساقطة من الأصل.

[٧٣] وردت في الأصل «مرفوعتين».

[٧٤] ذكرها المؤلف بن أنجب الساعي في: كتابه: [مختصر أخبار الخلفاء:٧٥]. ورد هـذان البيتـان في: [ديوان الحلاج:٢٥].

العلمان، وتلاقى الخاطران، وتساوى الفهمان، ولكني أنكر أن يكون الاطلاع من غير أخبار أقوى والاستضاءة من غير نظر أضوأ.

قال: ثم مضى كل واحد منهما، وهو يتكلم بكلام مع نفسه، لا يفهم أحد معناه، ولا يدرك مغزاه[٧٥].

---

[٧٥] ذكرها الخطيب البغدادي في: تاريخ بغداد: ١١٢/٨]. برواية أحمد بن الحلاج. كما ونقلها ابن باكويه في: كتاب: [بداية حال الحلاج ونهايته:٣٥].

الفهرس

كتاب أخبار الحلاج/ تصنيف علي بن أنجب الساعي البغدادي؛ حقق أصوله وعلق عليه موفق فوزي الجبر. ـ دمشق: دار الطليعة الجديدة، ١٩٩٦. ـ ٩٥ص؛ ٢٢سم.
١ ـ ٩٢٢: الحلاج، حسين س٢ ـ العنوان ٣ ـ ابن الساعي
٤ ـ الجبر
ع ـ ١/١٩ /١٩٩٧ مكتبة الأسد

«تتسلسل الأفكار الموصوفة عن التصوف من إبراهيم بن أدهم وتسجل قفزة مع أبو يزيد البسطامي قبل أن تبلغ تأوجها في الحلاج. ومذهب الحلاج هو نفسه مذهب الصوفية الاجتماعيين. وفيه أيضاً نجد الجنوح الحلولي والاتحادي. وقد تناول الأستاذ فائق حويجة هاجس الخلود الشخصي الجلجامشي عند الحلاج وهي لمحة مضيئة لمأساة التصوف لا أعرف أحداً قبله تنبه إليها. ويتماهى هذا الجنوح المأساوي المحثوث بلا حكمة الموت في شخصية مثقف مسكون بالسؤال حيث يتلبس الحلاج روح جلجامش بقمعها التراجيدي. والكلام في هذا الشأن يغري بالإطالة وقد استوفاه الأستاذ فائق فليرجع إليه القارئ».



48



أخبار الحلاج